الجنة الموعودة



مجموعتان قصصيتان

سمية عبد الحليم عويس

قصص

الجنة الموعودة

سمية عبد الحليم عويس

٢٠١١

الكتاب : الجنة الموعودة

المؤلف : سمية عبد الحليم عويس

النوع : (مجموعتان قصصيتان)

الصفحات : ١٠٨ صفحة

المقاس : ١٤ × ١٩ سم

الطبعة : الأولى ـ القاهرة ٢٠١١

الغلاف : إهداء من الشاعر حسن حامد

المراجعة اللغوية : بوب بروف

رقم الإيداع : ٢٠١١/٣٤٩٣

الترقيم الدولى : 987-977-374-709-1

الناشر : دار بوب بروفيشنال برس ـ ثرى بى

pop professional press (3p)

بالتعاون مع دار الإسلام للطباعة والنشر

ت : ٠١٠١٧٨٩٨٢٧ ـ ٠١٢٥٠٥٨٦٥٥

popprof@ymail.com



الإهداء

إلى أمي الغالية الحنون ..

إلى القلب المعطاء الكبير ..

إلى روحك التي أرجو أن تكون قد استقرت في الفردوس الأعلى..

والتي أحتسب على الله أن تكون بين أرواح الشهداء ..

أهدي إليك هذا الكتاب عرفاناً بقدرك وحبك وثباتك وصبرك في مواجهة الشدائد والمحن .. داعية المولى القدير أن يجعلك ممن قال فيهم : ﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) ﴾ يونس .

صدق الله العظيم .

سمية

(المجموعة الأولى)

الجنة الموعودة

تباريح الألم

إن تكن من كل هم خاليا

فأنا قلبى جروح فى جـروح

أو تكن من عهد نوح صابرا

فأنا دمعى بالعـــــناء يبوح

لا تسلنى كيف روحى بقيت

فبأعماقى هنا آثـــــار روح

***

أسطورة الحب .. أنت

عرفت فيك الحب ، عرفت فيك الحنان في أبهى صوره وأشكاله وألوانه ، عرفت فيك العطاء يا أم العطاء ، عرفت فيك الحلم والتضحية والمغفرة ، عرفت فيك الوفاء والإخلاص والمروءة وسعة الصدر والكبرياء وكل معاني الأمان .

عشت معك سنوات من العشق الحلال، كنت أجد راحتي ومستقري ووطني وأماني في أحضانك الدافئة الواسعة التي لم تكن تتسع لسواي ولم أكن أجد سعا دتي وهنائي إلا فيها ، كانت حياتي معك هي كل الوجود وكانت أيامي في وجودك هي كل الحياة .

لم أكن أتمنى شيئا في الوجود سوى رضاك ، ولم أكن أهتم بشئ في العالم إلا بوجودى في عالمك وفي نطاقك .

فرضت على الجميع حبي لك وحبك لي وواجهت العالم في سبيل حبنا الكبير لم يكن أحدٌ يدرك كنه حبنا ، ولم يكن مخلوق من المستطاع أن يعرف أو يتكهن بـ' بيننا من أسرار وآمال وأحلام وأشياء أخرى لذيذة أعطت لحياتي معنى ، أي معنى .

كنت كالطائر المغرد إذ يشدو بالألحان مغردا فوق الأغصان .

كنت كطفل فى أحضان أمه وكالشاب فى فراش عروسه.

كنت كشهيد زف إلى الحور العين فى جنات النعيم.

كنت فى كل ضائقة أستشعر حبك وأفر إليك وألجا لمشورتك فأجد نفسى فى الأمان المطلق.

كنت وما زلت شمسى الوهاجة وقمرى المنير وسمائى التى تظللنى وأرضى الثابتة التى أقف عليها وجبالي الراسيات التي تحمينى.

والآن ، بعد أن تناءينا وتباعدت أشباحنا نزولا على رغبة المغرضين أرى روحي ترفرف كل صباح فوق منزلك الأثير لدى الذى طالما جلسنا فوق عليته، نغزل أحلام الهوى ونشكو تباريح الغرام، ذلك المنزل الذى ضمنا كثيرا فى حب و سلام.

وتنطلق روحي هائمة كل عشية إلى مواطن لقاءاتنا لأرى فيها أشباحنا الهائمة طليقة عبر الأثير تنشد لقيا أرواحنا لتهدأ من عذابها الأزلي!! .

أعدك يا حبيبة قلبى أن ترتد إلينا أرواحنا إذا كان فى العمر بقية، فإن الحياة لن تكون حياة إلا بك، وأن العمر لن يستقر إلا حيث تعود في ربوعك أيتها الفاتنة في حبك المبدعة في أحاسيسك الكريمة في عطائك السخية، فيما يهبني السعادة ويمنحني الأمان ويدثرني بالدفء، أيتها المرأة الساحرة في نظراتك القوية، في إشاراتك العبقرية في عشقك، أيتها المرأة إنني أعشقك، أقبل الثرى تحت قدميك الطاهرتين، أمحو عنك كل ما افتروه عليك من أكاذيب ورموك به من ادعاءات، يا رمز الطهر والعفاف، يا عاشقة الحلال والجمال والكمال والدلال، يا فاتنتي، فليذهبوا حيث يشاءون، فإن في العالم الذي نعيش فيه مجالا واسعا للدنس والرذيلة وسوء الأخلاق وأنا وأنت منهم براء، دعينا في عالمنا الوردي ووجودنا البهي السرمدي دعينا منهم في عالمنا الحقي يا أسطورة الحب وآية المحبين، ففي يديك الحانيتين دستور العاشقين ! .

الجنة الموعودة

هى الآن على فراش الموت تعانى سكراته وكربه وهى تتضرع إلى الله بنفس خائرة القوى ودموع ساخنة أن ينهى أيامها بين يديه، وللمرة الأولى تستجيب السماء لندائها الصامت الصارخ ويأتيها بعد هجرة طويلة، ويا للمصادفة العجيبة إذ يعود من مهجره البعيد لتنهى حياتها بين يديه، راضية عن القدر إذ وافق هذه المرة هواها وأتى بحبيبها الراحل لتموت فى أحضانه !.

عرف من جيرانه وجيرانها أنها تعانى مرضا شديدا وألما لا مبرح منه فدخل عليها ليجدها وحيدة تعانى شوقا، يفوق ألمها الذى اعتادت عليه لكنها ما ألفت الشوق أبدا، فقد كان يؤرقها دوما وهو فى بعده عنها وقد رحل عنها الجميع، حتى أولادها سئموا مرضها وأوجاعها وتركوها للأيام، وتزينت الدنيا فجأة بثوب ناصع البياض حين وجدت يديها فى يديه وقد أفاقت على صوته الحبيب بعد أن أدخلته خادمتها الوفية عليها وهى تعرف - وحدها تعرف - مقدار شوق سيدتها المسكينة إليه، وتركتهما منفردين بعد سنوات عشرين، كم اشتاقت عيناها لعينيه الناعستين الهائمتين حبا لها وشوقا وحنينا .

أمسك بيديها، كلتى يديها واقترب بوجهه من وجهها ليشعر بحرّ أنفاسها وأخذ يناديها وهو دامع العينين متهدج الأنفاس ويرجوها أن ترد عليه ولو مرة واحدة، مرة واحدة يسمع فيها صوتها بعد سنين من الغياب.

آخر مرة سمع فيها صوتها كان معها أمام باب شقتها يكلمها وهي خائفة أن يراهما أبوها أو أخوها الأكبر وهو يكلمها، يطمئنها. يقول لها إنه سيتقدم لخطبتها وأنه جاهز، كل ما يمنعه أن تنهى امتحاناتها وتتفرغ له حتى لا يشغلها عنه شئ ، إنه يحبها ولن يضحى بها من أجل أى شئ ، إنها دنياه ومكانه وزمانه وكل شئ له في الحياة، ورغم تخوفها من عدم موافقة أبيها إلا أنه وعدها بألا يضحى بها أبدا وبأنه سيفعل المستحيل حتى تكون له ويكون لها .

وأنهت امتحاناتها وتقدم لها، ولكنه قوبل بالرفض الشديد لسبب واحد، هو أنه ليس من مستواها وليس كفؤا لها، وقابلها بعدها ليجدها فى كمد وحزن شديد لأن أباها رفضه وفضل عليه ابن عمها الذى يعمل فى التجارة الحرة ومن وجهة نظر أبيها مستواه لائق بهم ، أما هو فعمله فى وظيفته الحكومية محدودة القدرات لا يليق بهم .

وطلب منها أن يتزوجا بغير علم والدها فرفضت لأنها لا تستطيع فعل ذلك أبدا حتى لا يضع والدها رأسه فى التراب بسببها .

وافترقا، فرقتهما الأيام وتسلط الأهل وظلمهم وزوجها والدها - رغما عنها - لابن عمها الثرى ، وعاشت بعد حبيبها أياما سوداء كئيبة فى ظل حياة زوجية كريهة لا تجد لها طعما ينسيها قصة حبها الماضية .

ومنع النساء على نفسه ، حرمهن على نفسه وعاش وفيا لذكراه معها ، كان قد صمم على أن يغير حياته ، فاستقال من وظيفته ، سار فى شوارع لياليه سنينا عشرا ، حتى علم بوفاة زوجها فتوجه مرة أخرى إليها ليعزيها ويطمئن عليها ، وفى جلسته معها ومعهما ولداها طلب منها أن يعيدا حلمهما القديم ، وفرحت بطلبه فرحا عظيما بعد أن عاشت بعده أياما لا توصف إلا بأنها سنوات وأيام عجاف كالموت والقبور فى ظلمتها وبؤسها ووحدتها ، وها هو قد عاد اليها طالبا يدها من جديد .

وبالفعل أخبر أخاها الأكبر بطلبه لكنه رفض من جديد رفض كأبيه رفضا قاطعا بل وهددها إن تزوجته أن يحرمها من رؤية ولديها حياتها كلها .

وهكذا اصطدمت أحلامها على صخرة الرفض والظروف من جديد ، وفر بعيدا عن الرفض والظروف مرة أخرى ، وعرض عليها أخوها رجلا آخر لكنها أصرت على ألا تتزوج مرة أخرى .

وعاشت لولديها تربيهما ، عاكفة على ذكراها معه وحده إلى أن مات أخوها بمرض عضال ، وفى العزاء وجدته مرة أخرى ، وفى الفرصة المناسبة تقدم لها من جديد يرجوها أن يعيش ما بقى له من عمر بجوارها ، لقد أصبح فى الأربعين وهو يحتاجها الآن أكثر من أى وقت مضى ، ووعدته بالتفكير وقالت له بأنها ستأخذ مهلة فقط لتأخذ رأى ولديها وقد أصبحا فى الجامعة وأخبرته بأنها لم تعش ما مضى لها من أيام إلا وهى فى روحه وروحها ذائبة فيه ، تحيا على ذكراه ، على ذكرى أيامهما الأولى ترجو من الدنيا فقط أن تحيا بجواره ولو يوما واحدا ، لا ترى الرجال إلا فيه ، لا تجد للعمر حلاوة إلا معه ، لا تريد أن تكون امرأة لسواه وعندما عرف ولداها

عارضا بشدة وهددها ولدها بأنه سيترك تعليمه ويسافر خارج البلاد إن تزوجت هذا الرجل ، وأخبرته بأنها لا تقدر أن تضيع مستقبل ولدها ، بعد كل ما فعلته من أجل مستقبله هو وأخيه، واستسلم لقدره معها وهاجر خارج البلاد ليعود فى أول أجازة بعد خمس سنوات ليعرف أنها طريحة الفراش تعانى أشد حالات المرض اللعين وأن والديها سافرا وتركاها وأن خادمتها الوفية هى الوحيدة التى ترعاها .

وفى جلسته معها وهو يمسك بيديها أخذ يكلمها علها تفيق من غيبوبتها ليترك عينيها ويبحر فيها كعادته ليشعر بالأمان، وأخذ يسرد على مسامعها حكايتهما الطويلة الحزينة ، إنه وحده بجانبها الآن لا يشاركهما الغرفة أحد ، إنه يكلمها وهو واثق أنها برغم غيبوبتها تسمع كل كلمة يقولها ، لم يكن يشعر بأى يوم أنه عاشه بعيدا عنها ، ينس روحه أمام عينيها ويعرف يقينا أن يومهما الجميل لم يعيشاه بعد .

أخذ يحدثها ويرجوها أن تفتح عينيها لتراه ويسعدا ببعضهما ، ولو للحظات، أخذ يبتهل إليها ودمعه على خديه، وفجأة فتحت عينيها وشعر بخلجة يدها فى يده وبارتعاشه أنفاسها قرب أنفاسه .

أخذت عيناه تحدثانها ، لقد جاء مرة أخرى أمام عينيها لقد اشتاق لها شوقا شديدا ، وأخذ يقسم لها بأن يظل بجوارها حتى يفصل بينهما القدر بموت أحدهما ، وأخذت تفيق بين يديه تدريجيا ، فاستأذنها أن يعقد عليها فهى - لأول مرة - بدون رقباء أو حواجز ، إنه لن يتركها تضيع منه مرة أخرى مهما حدث، واتصل بصديقه فأتى بالمأذون فورا ، وعقد عليها وهى فى

فراشها ، وصارا فى قمة سعادتهما ، غلبت حتى المرض بالحب، وبقربه بعد طول غياب .

ومرت بهما الأيام وهما فى غمرة حبهما قد نسيا البعد والألم والمرض لكن الأيام بطبعها الغادر لا تترك الهنا فى حضن الإنسان حتى تقرعه بسياط الفراق والفقد .

اشتد عليها المرض ولم تفد توسلاته للمرض كى يتركها حتى تمتعه بها الدنيا بعد حرمان السنين ، قتلها المرض وهو يمسك بيديها ودموعه تغرقها دهمته الدنيا بمصيبة كان يخافها طويلا ، ترصدت له الدنيا لتفجعه بفاجعة كبرى ، لا يطيقها ولا ولن يتحملها ، ودفنها ووارى جسدها التراب وظل بعدها أياما لا يذوق الزاد حتى لحقها بروحه وجسده ، وهكذا الحب يعذبنا ويقربنا وينعمنا ويبعدنا حتى يقتلنا ، وربما بعد الموت يكون اللقاء الأبدى والجنة الموعودة ، جنة الأحباب !! .

***



أرجوك يا حبيبتى

أرجوك يا حبيبتى لا تدخلى مدينتى ، سأضيع لو ضعت وضعفت ، إننا فى دوامة الضعف ، تريدننى قويا لكن الزمن أضعفنى ، على ظهرى حمولة كبيرة تسلمنى ليالى الحزن لبعضها ، لن أستطيع خداعك ، لن أستطيع وعدك ، لا أقدر على قول نعم فلا تسابق لسانى ، إننى فى دوامة الحزن أعانى ، على بحار الحزن تتقاذفنى أمواجه لا أستطيع الهروب منها ، بين مرضى المزمن وفقرى المدقع ، لا أستطيع التنفس بين إخوة صغار يريدون منى مالا وقوة وأمانا ، أحبك حتى الموت ، أقول لك بقلبى لا تبتعدى يا حياة القلب لأن الدنيا لا تساوى شيئا بعدك ، لا تبتعدى فليس لى أحد فى الدنيا بعدك ، لو كنت تريدين منى الحياة فلا تبتعدى .

ويقول لك عقلى : إبتعدى ، أبحرى من مرسى غير مرساى ، فلن أقول لك عودى . إن شاطئى صخرى خطر ، شاطئى كله وحوش تكاد تلتهم شبابك وضياعك ، ابتعدى رغم أنك حياتى وشمسى وقمرى ، كل شئ بعدك ظلام ، إلا ما تنتظرينى وحولى أفواه جائعة !.

غرباء نحن فى هذه الحياة ، غرباء نمشى دون دليل ، لكننا لا نصل إلى شاطئ الأمان لا بأيدى الأحبة ، فما بالك يا صاح لو فارقتنا الأحبة فى ليل غربتنا ، وفارقته حبيبته وتزوجت غيره ليعيش لإخوته مربيا وراعيا سنوات طويلة ، ومرت الأعوام فى شقاء ليلا ونهارا ، لا ينساها ولا يملك القدرة على معرفة

غيرها ، يتزود ليحيا بمعرفة أخبارها من الأفواه والعيون ، تاه سنوات بدونها ، يظنونه حيا وهو ميت بين الأحياء ، ضحى بكل حياته من أجل إخوته وأمه الأرملة ، يقول بملء فيه إنه سعيد ، وقلبه يقطر حزنا ولوعة ووحدة وألما وشوقا وحنينا وماتت أمه بعد رحلة بر طويلة بها .

لو كان بيده قبل أن يولد لاختار حياته ومصيره وأحبابه ، لو كان بيده لعاش لنفسه يحب ويحب ، ورغم عذابه الطويل فى بعادها ما أحس يوما بالندم على تضحياته المتوالية من أجل أطفال صغار أيتام ذنبه الأوحد أنه كبيرهم ، فقد فرصته فى التعليم العالى ، وفقد فرصته في الارتباط بمن أحبها حب الجنون من أجل هؤلاء الصغار ، فقد فرصته فى السعادة الحقيقية من أجل شئ فى الحياة يسمى الواجب ، لو كان بيده لحرر بذورا صغارا من سجن صلبه ورباهم بدلا من أن يربى بذور إخوته ، لكنه كتب عليه طعم الألم ، طعم التضحية ، طعم العذاب ، طعم الحرمان ، وظل فى حياته وحيدا يتسقط أخبارها حتى علم بطلاقها ممن تزوجته لأنه سجن فى جريمة مخلة بالشرف وكان إخوته قد تزوجوا كلهم بل وأنجبوا ، فتقدم لها راجيا إياها أن ترحم شيبته فى حبها وشبابه الذى رحل فى ظلها وفى ظل وفائه لها ، فقبلت به زوجا بعد أن رضيت به حبيبا .

وأخذ يعد العدة لأفراح قلب اعتاد الحزن والحرمان ، وكلما راودته الظنون فى الغد والمخاوف من المستقبل ابتسم وضحك من نفسه المتشائمة التى عودته على الترح ، وقبل زفافه عليها بأيام معدودة كان جالسا على أريكته المفضلة تحت الشباك يحادثها فى الهاتف ويحلم معها بمستقبل خريفى سعيد لهما معا ، فإذا بالسماعة تسقط من يده فاقدا القدرة على النطق بعد أن فقد حياته وروحه إثر أزمة قلبية حادة ، فيا لسخرية الأقدار !! .

الخوف يا صديقى

لم يكن يتركنى أتمتع ببعض الأمان ، كان الخوف دثارى ، والهلع كسائى ، ومع ذلك كانوا يدعونه لى أبا ، وفى الحقيقة لم يكن يعرف عن الأبوة شيئا ، وكنت كأى مخلوق ، لدى استعداد فطرى غريزى للخوف والابتعاد عن الأشياء والمواقف التى تؤلم الجسم وتؤذيه أو التى يتوقع منها الألم والأذى ، لكنه بقسوته وغلظته أكسبنى مخاوف لا حصر لها ، مخاوف جديدة كثيرة ، صرت أخاف الأشياء التى يخافها الناس عادة ولكن بطريقة شاذة ، صرت أخاف الظلام والمرض والفقر والضمير والعار والقانون بطريقة مبالغ فيها .

فحين يأتى الليل أهاب كل ظلام محتمل وغير محتمل ، وحين يرتفع بى المكان أتوقع السقوط ولو بدون سبب ، وحين يمتلئ جيبى بالمال أخاف الفقر حتى أعد نفسى بين الفقراء المكدودين الذين لا يجدون حتى قوت يومهم ، صرت أخاف المرض دون أسباب ، صرت أهاب عبور الطريق والوحدة والأماكن المغلقة وحين كبرت صرت أهاب الالتصاق بزوجتى ، خوف العدوى . وهى صحيحة . وخوف العملية الحميمية ، وصرت منسحبا من الناس منطويا على نفسى متجنبا أية شرور محتملة ، حتى أخذ الأقارب عنى فكرة مفادها أننى

ليس فيّ خير لأحد وأنني (برّاوى) أما الأغراب فكانوا يتصورون أنني غريب الفطرة والهيئة قلبا وقالبا.

كان هذا حالي حتى عرفتها، رأيتها في عملي وأحببتها في صمت - بالطبع - وكنت طيلة الوقت أشعر أنني أمارس في داخلي شيئا ممنوعا محرما وأظن أنني منبوذ، ولا يحق لي الحب أو الاحتياج لأحد فضلا عن أن يكون لي علاقة بالجنس الآخر رغم أنني كنت مطلقا - لأنني بالطبع فشلت في علاقتي مع زوجتي - وظللت أحبها في صمت، وأتاملها عن بعد، وأنا في شوق شديد للحديث معها ومجاذبتها أطراف الحوار الودى حتى أبوح لها بمكنون صدرى ومخزون سريرتي وأشكو لها حالي وما أعاني، وظللت على حالي تلك شهورا وأنا أخاف الاقتراب منها وأشعر أنني لو اقتربت منها فقط فإنها ستتهمني بسوء الخلق وستشكوني لرؤسائي، وأخذت أتخيل موقفي ومنظرى وأنا أهان أمام جميع الموظفين ثم أطرد من العمل شر طردة، وفجأة رأيته يقترب منها أمام الجميع دون أن يخاف أو يهاب الموقف الذى مكثت أهابه طويلا، ولدهشتي الشديدة لم تصده ولم تسئ فهمه بل قابلته بالود والترحاب - وهي التي تفوق كل زميلاتها جمالا ومكانة ورشاقة وخلقا - وتطور الأمر لحد إعلان خطبتهما ودعواني للخطبة، وفي الليلة الموعودة كنت أرتجف تحت غطائي في غرفتي وحيدا ألعن نفسي وخوفي وأدعو على أبي وهو تحت التراب.

***

زوجة فى مهب الريح

قصتي ليست قصة في جريدة ، بل هى قصة عشتها ومازالت أعيشها ، أنا ابنة تاجر مخدرات، أجل ، تاجر من هؤلاء الذى يعتبرون وسطاء ، ليسوا كبارا ولا صغارا، بل فى منتصف السلم ، دارت به الدنيا دورتها وأحوجته للمال بعد خسارة خسرها وكاد يسجن فباعنى لتاجر مثله لأكون زوجة له لينقذه من ورطته، وعشت مع زوجى أنكر كل أحواله فهو يعيش بين البيع والشراء لكماليات السيارات كغطاء لتجارة المخدرات ، وبين تجارة المخدرات التى تدور فى منزلى الى حفلات السهر والشرب والقمار، كل هذه المناظر وأنا صابرة ، لأنى إذا تكلمت سيذكرنى بأبى .

إلى أن جاء يوم فوجئت به يعرضنى كسلعة على أحد أصدقائه المرابين الحشاشين فصرخت وحاولت إغلاق باب غرفتى على نفسى ، فإذا به يقتحمها ويهـ ربنى أمام الجميع ويدخل علىّ ذلك الرجل ليفعل بى ما يحلو له وأنا أبكى بكاء مرا ، وعشت على هذه الحال شهورا طويلة يخرج من المنزل تاركا إياى مع رجل من جلسائه لتيسير مصالحه الخاصة معهم ، وذات يوم أذكره جيدا حضر إليه شاب كأنه القمر فى طلعته يبدو عليه أثر الثراء الفاحش، وأدخله على الغرفة لأرضيه ـ كما أرضى جميع زبائنه ـ فدخل الشاب وجلس معى يحدثنى

وأحدثه دون أن يلمسني، وقال لي : إنه لا يرغب في فعل أي شئ يظن أنه مفروض على ، وعرفت عن هذا الشاب كل شئ وعرف عني كل شئ - الماضي والحاضر - ما أحب وما أكره، وعرفت عنه كل ما أحب أن أعرفه، فعرفت أنه وحيد أبوين ينفقان عليه ببذخ لإسعاده وأنه يتناول الحشيش فقط من باب المزاح لكنه ليس أسيرا له .

وتعودت عليه وصرت أنتظره في مواعيد منتظمة ، يدفع لزوجي المال من أجل أن يدخله علي - إلى أن تمكن حبه من قلبي وتمكن حبي من قلبه ، وزوجي لا يعلم شيئا من أمرنا إلى أن اتفقنا على الهروب ، وسمع بحديثنا واحد من الخدم فبلغ زوجي فكانت الطامة الكبرى ، منعه من دخول المنزل ومنعني من الخروج حتى للزبائن ، وصار يضربني ويهينني بسبب وبغير سبب وينعتني بالفاجرة فقلت له : تنعتني بالفاجرة لأنني عشت طاهرة مع رجل لم يلمسني، وحين كنت أعاشر كل يوم رجلا من زبائنك كنت في نظرك طاهرة ، فأخذ يضربني ويسبني بأبي وأمي إلى أن تعب من ضربي فتركني، واليوم مات زوجي في السجن بعد خمس سنوات مما حدث ، فهل سأجد في مجتمعكم الطاهر رجلا يتزوجني بعد أن عرف الكل حكايتي؟ ، بالطبع لا ، إن أمثالي يحكم عليهن بالإعدام دون نقض ، لأن الرجال في مجتمعنا يفعلون ما يحلو لهم ، أما المرأة فحتى إذا مارست الرذيلة بالإكراه يحكم عليها بالنجاسة أبد الدهر، لله دركم ، أي حكم هذا أو أي مجتمع هذا ؟ ، إن الموت سبيلي الوحيد للنجاة !!.

***

قصة الأمس

تسلمت عملى الجديد وأنا أشعر بالبهجة فالحياة تحتاج دائما للتغيير وعملى الجديد فى هذه الشركة تطور كبير فى حياتى ، معنويا وماديا ، أما من الناحية المعنوية فلأنى بعد تجربتى السابقة مع زوجى أحتاج حتما للبعد عن العواطف والرجال ومن الناحية المادية فهذه الشركة تجزل العطاء لمن يعملون فيها .

ومرت بى الأيام وأنا لا أكاد أرى رئيسى فى العمل فهو دائم التغيب عن المكان ، وفجأة ظهر ذات صباح لأفاجأ بأنه عمر ، عمر الذى كنت أحبه فى الجامعة ويحبنى ، عشنا أربع سنوات فى حب عظيم جارف ، وبهت عندما رآنى لكنى رأيت الفرحة فى عينيه اللتين أحفظ نظراتهما ومعانيهما جيدا ، عمر الذى فرقتنى الظروف عنه لأقابله كل هذه السنوات وهو زوج وأب .

وتحدثنا طويلا عندما طلب مقابلتى خارج العمل ، وتعددت مقابلاتنا رغم إصرارى - مع نفسى بعد انفصالى عن زوجى - على أن أهجر جميع الرجال فترة من الزمن ، لكن عمر كان شيئا مختلفا ، مختلف فى كل شئ ، فارس من فرسان العصور الوسطى ، كل ما يعيبه الآن أنه زوج ووالد ، وبالطبع اشتكى لى من حياته مع زوجته وكيف أنهما غير متفاهمين وأن ما يربط بينهما ابنهما

فقط لا غير ،وحكي لى كيف تعذب من غيرى وندم على كل لحظة قضاها بعيدا عني ،وطلب مني بعد فترة أن نتزوج ،نتزوج عرفيا لأنه لا يستطيع أن يطلق زوجته لأن الشركة شركتها ومن أجل ولدهما الوحيد أيمن .

ورفضت طلبه جملة وتفصيلا ، لأنى لا أقبل بفكرة الزواج العرفى أبدا لنفسى ، فأخذ يلح على إلحاحا متواصلا ويصر على مقابلتي باستمرار حتى ضعفت أمامه ، خاصة وأنني كنت أسكن وحيدة في شقتي ووالدىّ متوفيان وليس لى أخوة وكنت أظن حين طلاقى أنني سأقوى على الوحدة ، في النهاية قبلت عرض عمر بالزواج العرفي وتزوجنا في شقتي وصار يأتيني بعد ساعات العمل الرسمية لنقضي معا أحلى الساعات .

أحسست أنني سأعيش حياتي أخيرا ، إلى أن فوجئت يوما ونحن معا بمن يطرق باب الشقة طرقا عنيفا ووجدناها زوجته التى فضحتنا أمام الجيران وصارت صورتي في البناية سوداء مشوهة خاطفة للرجال ،ونزل معها بالطبع ليلم الموضوع وبعد يومين فوجئت به يقابلني ويعتذر .

يعتذر عن الموضوع كله بعذر أن زوجته هددته بفض الشركة معه واعترف لى بأنه بدونها سيصبح على الرصيف ، فهمت رسالته وقطعت ورقته وعشت بعدها أياما ألملم جرحي منه وأعترف لنفسى بحمقى لأنى ظننت أن عمر يمكن أن يكون شيئا غير قصة للأمس !!.

***

ربما أنا حية بين الأحياء ،لكنى لا أرى نفسى فى الأحياء ،بل ومع أنى امرأة لا أشعر أننى من ضمن النساء ،المرأة جسد وقلب وروح ،لكنى لا آخذ حقى من أى جزء فى هذه الأجزاء ،ربما لأنى فقدت الرجل الذى أحببته .

قال لى : لابد أن نتزوج ،لا أستطيع الحياة بدونك .

فأجبته :لماذا الزواج ،أنا معك فى كل الحالات ؟ .

قال لى : الزواج رباط مقدس ،معناه أنك أصبحت ملكى للأبد ،وأصبحت ملكك إلى أن أموت ،الزواج معناه بيت وأسرة وأطفال منى ومنك معا ،الزواج معناه ألا يأخذك أحد منى ،لابد أن نتزوج فى أسرع وقت .

قلت له :أخاف مواجهة أبى وأمى ،ماذا أقول لهما ؟ .

- قولى لهما أننا متحابان ونريد تتويج هذا الحب بالزواج .

- لا أستطيع مواجهتهما بأنى أحببتك دون علمهما .

- خوفك سيدمرنا ،إذن دعينى أتقدم لك كأنى خاطب وكأنك لا تعرفيننى ، فقط أعطينى أنت الفرصة لإتمام موضوعنا .

- أعطنى مهلة للتفكير ،الموضوع فى نظرى مخيف .

- لماذا يا حبيبة عمرى ؟ ،ما وجه الخوف هنا ؟ .

ـ لأننى لن أستطيع تمثيل أنى لا أعرفك .

وامتد الحوار حتى قطع خوفى كل الآمال وحطم كل الأمانى ولم أعطه فرصة للتقدم ،وظللت بقلبى وحيدة من بعده رغم أنى تزوجت سواه ،وتزوج سواى ورأيته ورأيت زوجته وأولاده ،وكأن الزمن يسخر منى ومن قلبى الذى أدميته بيدى بسبب خوفى اللعين .

ومرت الأيام ليرحل زوجى عن الحياة فى هدوء ويتركنى أرملة دون حزن عليه لأنى خلعت السواد بعده بأسبوع واحد . فقلبى حزين من أجلى لا من أجله ، ولم أنجب منه ولدا أعيش لأجله فها أنا ذا أحيا بمفردى فى بيت كبير وأنا فى الأربعين من عمرى ،قد قارب الشيب مفرقى وقد خسرت كل شئ حتى أنوثتى ،توالت علىّ الخسارات بعد خسارتى لحبيبى الوحيد ، أشعر أن كيانى ـ جسدا وقلبا وروحا ـ أضحى كقطعة ثلج باردة لا تجد أية مشاعر للحياة بأسرها ،تحت وهج شمس باردة لا تجد أية مشاعر للحياة بأسرها تحت وهج شمس الخريف ، ورغم أن شمسى ليست قاسية إلا أنها قادرة على أن تذيب فىّ الحياة بالتدريج بعد أن فقدت المقدرة على الحب ، بعد أن أصبحت أعيش فى دنيا الذكريات ،مجموعة من الصور القديمة لحبيبين على ضفاف النيل عيناهما مليئة بالفرحة لكن الحياة والزمن قتلا فيهما الفرحة ، أرى النهاية تقترب وسأسلم لها حتما كما سلمت للخوف قبلها منذ سنوات ، آه ،!! .

***

سيدة الصابرين

بدأت حياتها بين حدين : حد من الفقر والبؤس ، وحد من الألم والمعاناة ، خرجت ذات يوم على الناس وكأنها من بساطتها قطعة من الحياة البالية مدرجة فى بعض الأطمار ، وما تحصى العيون تلك البقع المنتشرة فى ثيابها كأنها علامات الفقر وأرقامه يعد بها ليالى عذابها ، وكانت ضعيفة عليلة قد أخذ السقام من حجمها كما أطفأت الأقدار من نجمها .

وفى رأسها عقل زاد فضل الله ورحمته فى جهة منه ، فهى مع شدة بؤسها وشظف عيشها وقسوته ترحم الناس وتحمد الله مع أنها إذ تنظر إلى الحياة ترى كل شئ إلا نفسها ، وإذ تنظر إلى الموت لا ترى فيه شيئا غير نفسها ، ولم يمسك روحها بين الاثنين إلا خيطان : أحدهما فى السماء وهو الأمل فى رحمة الله تعالى ، والآخر من الأرض وهو إشفاقها على أمها الفانية التى كبرت وبلغت من الكبر حتى حسبتها الفتاة قد كبرت سن الموت (*) وكانت تكدح طول نهارها إبتغاء راحة أمها فى لقيمات يقمن أودها وتهجع آخر ليلها تحت قدمى تلك الأم ابتغاء تلبية أناتها طول ليلها .

وتقدم لها شاب يوازيها فى السن ورأت فيه صنوا لها وباعت لها أمها عقدا كانت تملكه وتعزه ليوم تجهيزها ، وتزوجت ، وبعد أيام قلائل رحـــلت الأم

(*) طعنت فى السن .

مخلية ابنتها لكدح الحياة وجفافها ، رحلت لتدعها تواجه الحياة منفردة من أية معونة حنونة فحنان الأم ليس كمثله حنان .

لكن زوجها كان لطيفا معها يلبى طلبات المنزل ويرعى شئونها وشئون الأولاد ، وظلت بهم السفينة تجرى فى بحر الحياة المتلاطم يوم أبيض ويوم أسود حتى أراد الله أن يرفع درجتها عنده فأصابها المرض فى عظامها فأضحت بين عشية وضحاها رهينة الفراش لا تتحرك حركة إلا بأنة ومشقة .

ويئس الأطباء من علاجها فيئست من طلب علاجهم وظلت تعانى فى صمت متفان ، حتى أصاب المرض زوجها هو الآخر وأضحى بعد أن كان يخدمها ويرعاها يحتاج إلى من يخدمه ويرعاه ، وصارت حالتهما يرثى لها وابنتهما تحاول جاهدة أن تقوم بشئونها وتحنو عليهما وتحدب على مصالحهما ، حتى رحل الأب والزوج بمرضه هزيلا بعد امتلاء عاجزا بعد قوة وفرغ البيت إلا من اثنتين هزيلتين ، إحداهما شبح امرأة راقدة فى الفراش لا تقدر حتى على أن تشرب الماء بمفردها ، والأخرى بقايا امرأة عافت الزواج بعد تجربة فاشلة هى الابنة النبيلة التى رهنت حياتها لأمها بعد أن هجرتها أحلام السعادة ،فيالهما من بائستين صابرتين ، كل منهما يصح أن نطلق عليها سيدة الصابرين ، إلا أن الأم فاقت الابنة بطول باع فى طريق العناء والشقاء ،رحمهما الله ! .

***

أنت قدرى

ليتنى عدمت روحى قبل أن أعرفك ،ليتنى ما عرفت معنى الحب معك ، إننى أموت كل يوم فى حياتك ، تميتنى وتحيينى آلاف المرات ، أتنسم عبير هواك فأحيا وأسعد بقربك ، ثم أفقدك ولا أستطيع رؤياك فأموت ، أجل يا حبيب العمر .

إنك بالنسبة لى كل الحياة ، أنت الهواء والغذاء والماء ، أنت بلسم جروحى وشفاء أوجاعى ، وربما كنت وبائى ودوائى حين أراك يأتى ربيعى وتتفتح براعمى ، وحين تغيب عنى يعاودنى الشتاء ببرده القارص وتشيب أيامى وملامحى ،هل تحبنى كل هذا الحب يا قدرى ؟ ،لو كنت تحبنى كل هذا الحب ما تركتنى لحظة واحدة لتذهب لسواى ، لو عشقتنى كما عشقتك وكما تزعم وأنت معى لما وجدت برد المياه وأنت فى أحضان امرأة غيرى ، لما أنجبت من سيدة أخرى لا تربطك بها ما يربطك بى من أواصر تجذبنا معا إلى أرض الحب وترسفنا بأغلال الهوى القوية .

لقد أنجبت منها وذقت معها الهوى وتناسيت وأنت معها كل ما بيننا وكل ماضينا ، إننى أراك وأنت معها تتأبط ذراعها وتكاد برعايتك لها تحملها بعيدا عن الأرض ، ثم أراك وأنت معى تتأبط ذراعى وتكاد بحبك لى تحوطنى بعينيك قبل ذراعيك .

قل لى بربك كيف تحب اثنتين ؟ ، كيف تقدر على عشق امرأتين فى ذات الوقت وأنت تملك قلبا واحدا ؟ ، إننى أومن بأن من حقى وأنا أعشقك وتعشقنى ، من حقى أن أمتلك كل ما فيك ، وتصبح حياتك ملكية خالصة لى وحدى ، لكنك تقول لى أنا ملك لكما معا وأنتما ملك لى وحدى ، ما هذه الأنانية وما هذا الغرور ؟ .

لكنى ما زلت أعشقك ، ما زلت متيمة بك ، أعشق حياتك ووجودك رغم كل عيوبك ومساوئك التى أراها ويراها فيك الآخرون ، هذا هو الحب ، أن أرى فيك الكمال كله وأن كنت ببشريتك أهل لكل نقص ، وأعدك أن أظل أحبك ما بقى لى من عمر وما امتد بى الأجل ، فحبك هو الدماء الحارة التى تسرى فى عروقى لتثبت أنى ما أزال فى معسكر الأحياء أرتشف عبق الحياة ، أدبُ على الأرض تظللنى السماء .

إن الحب أعمى كما يقولون ، وكل ما أتمناه أن أظل فى حبك عمياء إنك تشعرنى وأنت معى أننى كل شئ لك فى هذه الحياة ، إنك أيها الكاذب الرعديد بارع فى كذبك ، بل قل : صادق فى كذبك ، كاذب فى صدقك ، أصدق كل ما تقول لى رغم أنى واثقة أنك تقوله بحذافيره لها ، رغم أنى واثقة أنها لا تحبك حبى لك ، ولا تعشق وجودك كما أعشقه ، رغم كل هذا يا حبيبى أسامحك وأتمنى أن أُقتل فى هواك قبل أن أُقتل فى خداعك ، أيها الحبيب المخادع ، أحبك أحبك يا قدرى !! .

***

هذا هو الحب

قد نعيش بعض المشاعر ونظنها حقيقية وما ذاك إلا لأنها براقة في حين أن كثيرا مما هو براق يكون زائفا ومخاتلا ، لا تنخدع بالظواهر واستكمل حياتك وأنت تؤمن أن بواطن الأشياء العادية أفضل كثيرا من ظواهرها التى قد لا تكون جذابة ! .

عشت معه وأنا أعتقد اعتقادا جازما بأنه لا يحبنى وبأننى لا أمثل له شيئا ذا بال ،وفى المقابل كان لا يعنينى كثيرا لأنه طبيعى فى تصرفاته ، لا ينفعل كثيرا فى أشد الأمور احتياجا للعاطفة والانفعال ،بارد فى أحلك الظروف لا يحتد فى المواقف التى تستدعى الحدة ،لذلك لم أستطع أن أحبه .

وأحببت أخاه ذلك المتمرد العاطفى الجذاب ، وظللت سنوات أحيا معه فى ظل حياة زوجية تعيسة ، لا أعطى نفسى الفرصة لأتمعن فى شخصيته مع أنه لا يسيئ لى أبدا لكنه على عكس أخيه فى كل شئ ، وكنت بطبيعتى متمردة جذابة تجذبنى الأشياء البراقة أقع صريعة للأوهام فى أغلب الأوقات ، كما أننى متوترة قلوقة مترددة فلم أندمج مع شخصيته الهادئة الرزينة الناضجة المستقيمة ، بل اعتبرت هدوءه برودا ورزانته قلة انفعال وعدم إحساسه ونضجه تخلفا وعدم اندماج مع سن أقرانه ممن هم فى مثل عمره وأولهم أخوه ! .

إن أفكارى عن الحب رومانتيكية ، أريد الحب من أول نظرة ، كان يخالفنى الرأى ويرى أن الحب من أول نظرة يكون مجرد إعجاب وافتتان وهو مع كل هذا بعيد الاحتمال والوقوع ، كان يرى أن الحب الحقيقى هو الرغبة من شخص فى شخص آخر وبذل الجهد الصادق لتحقيق سعادته ، الحب ليس شركا نقع فيه بل هو زمالة واحترام متبادل بين اثنين على أساس أن لهما ذوقا واحدا وأفكارا واحدة واتجاهات واحدة ومثل هذا لا يتأتى له أن يحدث فى لحظة واحدة أبدا ، ولكننى كنت أخالفه الرأى دائما .

حتى وقع ما كان حتما سيقع ، طلبت الطلاق منه لأنى بآرائى المخالفة لآرائه لم يكن من الممكن أن أجد سعادتى معه ، وحرصا منه على مصلحة الأبناء وضع أمامى بعض الصعوبات وأظهر تمسكا بى خالف ظنونى ، كنت أظن أنه لا يحبنى ولا يعبأ بفقدى .

وفى هذه الأثناء أوقع القدر أخاه فى فخ حقيقى بسوء أفعاله ، إذ هرب مع ابنة خاله ليتزوجها رغما عن أهلها ، ورأيت هلع أمها عليها ومدى الأزمة التى حدثت فى الأسرة بسبب تصرفه الأهوج ، هذا الذى كنت أظن أننى أحبه وأميل إليه ، كم كنت حمقاء سفيهة ، كدت أسقط فى الهاوية وأنقذنى الله منها .

وفى لحظة صفاء رجعت لزوجى وصالحته وأخبرته أن سوء فهمى للحب الحقيقى هو السبب وراء تعاستى ، واعترفت له بأنه أفضل زوج وأنه أفضل منى وعاد الهدوء إلى بيتنا ونعمت مع زوجى لأول مرة بنسمة حب هانئة هادئة .

هذا هو الحب ! .

رجل وست

منذ فجر الدهر وكلمة ولد لها رنين خاص ، أنجبت حواء ذكرا ، قابيل وهابيل ،فكان لهما حق العمل والخروج والسهر خارج الكوخ ، كل الحقوق ، حتى اختيار العروس من حقهما ، أما الفتاة فكان عليها الخدمة فى البيت والسهر على راحة الذكور ، وسماع الكلام وعدم المعارضة فى أى شئ ، حتى فى اختيار العريس .

ومرت الحقب والدهور والأعوام وهاهى حواء جديدة ، حواء تطالب بالحرية والانطلاق والعمل خارج المنزل والسهر بعد منتصف الليل ، تقول معترضة : إذا عملت شيئا لا يعجب أحدا فأنا مطالبة بالتغيير وما يقوله الرجل أخى أو أبى والرجل زميلى هو القانون ،هو القاعدة ،فهو الرجل .

ومن كلمات الأم المفضلة :يا بنتى ،أخوك رجل ،لا تنسى ! .

حتى لو كان راسبا وأنا ناجحة ،حتى لو كان الأصغر وأنا الأكبر ، كل شئ يتغاضى عنه فى صالحه فهو الرجل ، أبى الحبيب مات وتركنى لأخى وسخافاته ، كان أبى حنونا على ، يشترى لى كل ما أشتهى وأتمنى ، ينهر أخى إذا مسنى بسوء ، يعاملنى بمنتهى اللطف والذوق .

ومرض أبي وظللت أخدمه بمنتهى الحب حتى انتهى كل شئ وتركنى وفارق الدنيا بأسرها ، ومن ساعتها سلمنى القدر لأخى القاسى ، وأمى ضعيفة منكسرة الجناح لا تقدر على أن تدافع عنى ، وتمنيت أن أخطب حتى أفر من وجه أخي ، وبالفعل تقدم لى شاب مناسب وقال لى أخي : لن ترفضيه كنت ترفضين أيام أبيك وكان يدللك ، أما الآن فلن أسمح لك بأن ترفضى أى عريس مناسب .

قلت له : وهل رفضته ؟ .

وارتبطت بالعريس المناسب ، وأصبحت المشكلة كيف يسمح لى أخي بالحديث مع عريسى ؟ ، مرة الوقت غير مناسب ، ومرة المكالمات كترت ، ومرة التحشمى ، وهكذا ، وبعد تعب وأخذ ورد ، تم الزواج .

ولكن بعد مدة يسيرة تم الطلاق بنفس البساطة التى تم بها الزواج ، لنفس المشكلة ، (ولد وبنت) كل شئ مخطئة وهو مصيب ، كل شئ هو علي حق وأنا على باطل ، النقد فى كل صغيرة وكبيرة ، وكانت النتيجة بعد طول خلافات أن تم الطلاق ، ورجعت لأخى العزيز ! .

رجعت حاملة لقب مطلقة وهو لقب يعنى (مجرمة) فى عرف مجتمعنا ، ممنوع اللبس والقلع والدخول والخروج والمشى والجلوس والسكوت والكلام ، كل شئ خطأ وعيب وممنوع ، لأنى بنت ، ومطلقة ، أصبحت من أصحاب السوابق ، هذه هى المشكلة ، ولد وبنت ، فهل لها حل يا مجتمعنا العزيز ؟! .

***

أمى قتلتنى

سافر أبى الى إحدى دول الخليج ليبحث عن الثراء فى موطن المال والذهب والبترول ، وبعد سنوات ذاقت فيها أمى ويلات الوحدة والمسئولية عاد محملا بالخير الكثير ، فافتتح شركتين وبدأ يعمل ليل نهار ليأتى بالمال الوفير حتى يحافظ على المستوى المادى الذى وصل إليه .

نسى نفسه فى خضم بحثه عن المال ، نسى أنه كرجل ناضج يحتاج إلى امرأة تصونه وترعاه ، وحين تذكر اتجه الاتجاه الخاطئ فترك أمى فى وحدتها وذهب إلى سكرتيرته الفاتنة ، تلك التى بهرته بجمالها وبهرها بماله وعنفوانه فطلبت منه الزواج وإلا ستتركه .

وبالفعل تقدم لخطبتها وقدم لها شبكة ثمينة تقدر بجمالها الغالى الفريد ، وحين علمت أمى ثارت ثورة عارمة وطلبت من أبى الطلاق كما طلبت منه تعوضها عن سنى غربته ووحدتها وتحملها مسئوليتنا بمفردها أنا وأخى الأصغر ، أما نحن فلم يفكر فينا أحد ، اتجه أخى لمذاكرته يدفن فيها نفسه ليحصّل أكبر قدر من الدرجات ، وأما أنا فاتجهت إلى رفاقى الذين كنت أجد معهم نفسى ومتعتى ، والذين قادونى بدورهم إلى الهيروين ، أجد فيه راحتى

بعيدا عن أجواء المنزل الكئيبة ، وعرفت أمي بأمرى حين عدت إلى المنزل ذات ليلة فى حالة من التيه والسطل فأخبرها الطبيب أنى وقعت فى شرك الإدمان .

وأخبرت أمي والدى بما حدث فأتى بسرعة إلى المنزل بعد شهر من الغياب واصطحبانى بعد توبيخ شديد إلى المستشفى للعلاج من الإدمان ، وبعد أيام من اهتمام والدى بى شفيت من داء الهيروين وداء الاكتئاب وعدنا إلى المنزل وكلنا مترابطين وعادت المياه إلى مجاريها بين أبى وأمي واستمر الوضع مدة يسيرة على وتيرة جيدة بين والدىّ ، لكن أبى بعدها رجع لعادته الأولى وذهب إلى شركتيه وقابل سكرتيرته وعاود الارتباط بها ، علمت أمي فجُنّ جنونها وبدأت الخلافات الحادة بينها وبين أبى من جديد ، وأصبح جو المنزل لايطاق وعاودت الفرار لأصدقائى ثم عدت للمخدرات من جديد ، وأعادت القصة نفسها ، ذهبنا للمصحة واهتم أبى بنا حتى خرجنا ثم استمر فترة على ذلك .

عرفت أمي سرا هتمامه بنا فطلبت منى فى لحظة من الأنانية وعدم الإحساس بالأمومة أن أداوم على المخدرات حتى يستمر اهتمامه بنا ، وأصبحت تدخل إلى المخدر بطريقة خفية فى المصحة وحين علم الفريق المعالج بذلك كنت قد وصلت إلى النهاية ، ولم يعد يجدى معى أى علاج لأنى هربت من المصحة ، وتركت الدنيا لهم وذهبت إلى حيث لا يعلم أحد ! .

***

ضحايا الحياة

كيف تستقيم إنسانية المرء إذا نزع من قلبه الوفاء ؟! (*)

هكذا كانت تحدّث نفسها ، هكذا بكل بساطة يصبح الماضى طى النسيان وتصبح أمى من ضحايا الحياة ، تصبح الزوجة السابقة فى خضم هذه السعادة التى يعيشها أبى نسيا منسيا ؟ .

رأت أباها فى سعادته مع زوجته الشابة فتذكرت أمها الراحلة ، تلك التى خدمت أباها فى مرضه ، ولم تتوان عن توفير الراحة له أبدا حتى رحلت عن الحياة قبله ثم شفاه الله لينساها ويتزوج غيرها ويسعد معها وينسى الراحلة التى ضحت بكل شئ من أجله ! .

يقول : إنه ما أحب أحدا مثل أمها لكنه رغم ذلك مد له فى حب الجديدة حتى، إنه ليغازلها أمام الجميع ، أهكذا تسقط العشرة أمام أنوثة امرأة وتصبح هامشا لا أساسَ له فى الحياة ؟! .

نسيت أن للحياة فعلا ضحايا وأن هؤلاء الضحايا لا يظلون فى ذاكرة جميع الناس بل لا يذكرهم إلا الأصفياء من البشر ، كانت أمها كل شئ فى حياتها لكنها لن تكون بالضرورة كل شئ فى حياة أبيها .

(*) مجلة إنسان السعودية - العدد العشرون - بتصرف .

تتذكر أياما سلفت وسنين انصرمت بعجافها وسمانها فتترآى لها صورة والدتها وهى تبذل الغالى والنفيس ولا تدخر جهدا لنيل رضا الوالد ، تتذكر كيف كانت توليه مزيدا من الرعاية والتقدير على نحو مضاعف عما تراه عن كثب أمام ناظريها ، تتذكر كل ذلك فينشطر قلبها ألما وقد أفرزت المقارنة بين ما مضى وما هو ماثل بين يديها الآن ما يشبه اللوحتين المغايرتين لكنهما رسمتا بأنامل واحدة ، بأنامل عواطفها .

يتسلل لها شعور خفى يجتاح كل كيانها ، شعور بالندم على ما كان من سعيها الحثيث للبحث عن زوجة لوالدها ، تتدارك هذا الشعور فى حينه بالاستغفار ، فهى لم تسع فى تزويجه إلا طمعا فى بره وإسعاده وبحثا عمن تتمكن من رأب الصدع الذى خلفه رحيل الوالدة ، وملء الفراغ الذى تعرفه فى حياته ملتهما كل ما من شأنه أن يمده بالصبر والسلوان .

وقبل أن تذهب نفسها حسرات تنتبه فتستغفر ربها وتذكر نفسها أن والدها هو من تتحين خواطرها المساس بسيرته ، وتتذكر مناما رأته لوالدتها توصيها فيه بوالدها ، وتتذكر نصحها ومعونتها وحنانها وعطفها عليها حال حياتها ، وتكلمها خالتها فتسألها : ما الذى فعلتيه جعل أمك غير راضية يا ابنتى ؟ ، فتقول لها بعيون دامعة نسيت يا خالة أن سعادة من نحب هى أيضا سعادتنا .

فتقول لها خالتها : تذكرى يا ابنتى أن هذه كانت حكمة والدتك فى الحياة ، إنها لن تذوق السعادة والهناء والراحة إلا من خلالكم يا ابنتى ، أسعدوها بحسن عشرتكم لبعضكم ، فلتهنأ روحك يا أماه ، من الآن فصاعدا لن تشهدى لى بغير ما كنت تأملين منى وتعهدين .

حتى أحرق قلوبهم

نشأ بين أبوين منفصلين يكرهان بعضهما البعض (*) إذا أقام عند أمه تقرز من غزل زوجها لها أمامه بل وممارستهما معا بعض الأفعال الفاضحة دون مراعاة لوجوده ، وكثيرا ما فضلت أمه زوجها عليه وطردته من المنزل لترضى زوجها الذى يصغرها بعشر سنوات ، وإذا ذهب إلى والده عامله بمنتهى القسوة وبأعتى درجات العنف ـ فهذه طريقته فى محافظته عليه من الأخطاء ليربيه تربية حسنة ـ حتى كان يضربه ضربا شديدا حتى يلهبه برباط بنطاله ! .

أنّ الطفل تحت وطأة هذه الحياة فكان يفر إلى عمته التى تحتو عليه ليجد فى بيتها الراحة والدفء والأمان والاستقرار ، إن الحنان حاجة فطرية فى الإنسان كحاجته إلى الغذاء والماء والهواء ، ولكن هذا ما يجهله كثير من الآباء فى خضم انشغالهم بأنفسهم وفى دورانهم حول ذواتهم لتحقيق مصالحهم الخاصة ، ولهذا قد ينشأ الأطفال على حب العدوان لأنهم ما شربوا سواه من أسرهم ، فالعدوان ـ كما تقول البحوث التجريبية ـ لا يصدر عن غريزة ، بل يكون فى العادة نتيجة إحباط سابق وقد يكون وسيلة للتمويه على الشعور بالنقص أو لتوكيد الذات وإعلان الشخص المهمل عن وجوده ، أو لعدم الإحساس بالأمان فينشأ العدوان كوسيلة للدفاع عن النفس .

(*) قصة فيلم (السفاح) .

وهكذا نشأ بطلنا على حب العدوان تجاه كل الناس ، ولم يكن فقط حب عدوان بل كان عدوانا صارما موجها قاسيا يصل لدرجة القتل والذبح أحيانا ، كأن يقتل لمجرد القتل ، القتل الذى أضحى هواية ومهنة ، قتل موجه سياسيا أحيانا ، فكان يعمل كقاتل مأجور ، وأحيانا يختار أشخاصا ناجحين مرموقين ، وظل على هذه الحال سنوات حتى استفحل أمره وفى آخر مذبحة قام بها أمسكته الشرطة وحين قدم للإعدام قال إنه كان يقتل الناس ليحرق قلوب أحبابهم عليهم وينتقم من المجتمع بأسره ، ذلك المجتمع الذى لم يجد من أفراده أى بر وأى عطف وأى عطاء .

لقد أعدم هذا القاتل المسكين ، ومات فردا ، وحين يموت فرد لا يمثل ذلك مشكلة فهناك مئات الموتى كل يوم فى هذا العالم ، لكن المشكلة مشكلة ظاهرة القسوة التى تجلب القسوة ، العدوان الذى يجلب العدوان ، الكراهية التى تلد الكراهية ، كما تدين تدان ، متى يفيق مجتمعنا من قسوته ؟ ، القسوة على الأبناء والآباء والأيتام والأرامل والمساكين ، القسوة المبررة بالأنانية ، أو القسوة لمجرد القسوة ، القسوة غير المبررة .

ومتى تنتهى من سرد وتطبيق قانون الغاب ؟ ، ذلك القانون الذى يجعل القوى يأكل الضعيف ، قانون الوحوش ، قانون الأسماك : الكبير يأكل الصغير ، أو قانون الحيتان ، فلنتذكر أننا فى مجتمع بشرى ولسنا فى مجتمع الوحوش ، فلندع مجالا بيننا للرحمة ، حتى تسكن القلوب : " من لا يرحم لا يرحم " .

***

الآباء يصرخون

عاشت حياتها لأولادها بعد أن رحل زوجها عن معترك الحياة وتركها أرملة بائسة لا تملك وأولادها من حطام الدنيا النزر اليسير ،لكنها صبرت وصابرت ورابطت وصارت كسارية السفين لأبنائها يتشبثون بها من ظلمات الإبحار فى هذه الحياة العاتية ، وباتت كالفنار ينظرون به فى عتمة لياليهم الباردة القرة حتى لا تغيبهم الطرق بوعثائها فى أطباق من الفقر والهموم والأنكاد ، فتعلقوا بها تعلقا فاق كل حد وصارت لهم كل شئ فى هذه الحياة وكانت حياتهم على لون واحد لا يتغير هو لون الشظف وما أبشعه من لون لمن عرقه وذاق علقمه .

كانوا ستة من الأبناء ذكورا وإناثا فعاهدت خالقها الذى قسم لها بهم أن تحميهم وترعاهم وتغذوهم ما بقى فيها رمق وما بقيت حبيسة إسار الحياة ورهينة سجنها ،فالدنيا سجن البؤساء جنة المنعمين .

وتقلبت بهم الليالى وعركتهم الأيام فى رحاها بين نعماء قليلة وبأساء كثيرة غالبة حتى كبروا وصاروا فى مناصب مرموقة ، وتزوجوا وأنجبوا وهى ما زالت فى بيتها الصغير المتواضع لا ترجو من حطام الدنيا شيئا ، وأولادها - رغم شقائها من أجلهم - لا ينظرون لها نظرة عطف فيرقون لوحدتها فى دارها اللبنية ، بل كل ما يفعلونه هو أن يرموا لها لقيمات غرة كل شهر ليطفئوا غلة نفسها - وهى لا تريد شيئا - وليسقطوا عن كواهلهم عناء حملان همها ! .

أيها السادة ، إن كلمة " هات " وكلمة " خذ " لولا كلتاهما لخربت الدنيا وتقاصرت الأمور والأحوال ، وكل عمل وكل عامل يتركب منهما ، فالحياة كلمتان : هات وخذ ، ومن يرد الدنيا بخذ فقط دون هات أو بهات دون خذ فهو مغرور أناني أو أحمق لا يدرك معنى العطاء وقيمته في ميزان الإنسانية ، ومرضت الأم البائسة فلم تحن عليها قلوب أبنائها بل أرسلوا لها من يخدمها بدريهمات معدودة .

ومن يخدم بالمال غير من يخدم بالحنان ، من يخدم بالتكليف غير من يخدم بالقلب والأحاسيس ، فمرضت مرضا على مرضها حين رأت ضعفها ولؤم أبنائها حين تولوا المناصب واكتنزوا الأموال ، منحهم الله ، كيف صار شيطانهم في إنسانهم ، وكثرة أموالهم في قلة إحسانهم ؟.

أخزاهم الله ، ما بروا ولا نفعوا ، بل طمعوا في كل شئ حتى في الطمع ، ورحم الله الأم فتذكروا ملك الموت في خضم أشغاله في قصف الرقاب واكتنفها الموت فتزاحموا حول فراشها يبكونها ويرثونها وقد تذكروا ـ بعد فناء روحها ـ جميل صنعها فيهم .

فيا ليت شعرى ما أعجب أمرهم وأسوأصنيعهم وما أشبه الجحود أن يكون آلة من آلات القتل ، فإنه يميت أكثر أصحابه موتا شرا من الموت ، إلا من عصم الله ، موتا يجعل أسماءهم كأنها قائمة على ألواح من العظام النخرة ، ويرسلها كل يوم إلى السماء في لعنات لا عداد لها ، ثم يثبتها التاريخ آخر ، كما تثبت الحكومة في كل سنة عدد البهائم التى نفقت بالطاعون ، رحم الله الرحماء ، ألا لا خوف عليهم ولا هم يحزنزن ، ولعن الله فراعنة القلوب غلاظ الأكباد وحشرهم في زمرة الظالمين الذين لعنوا في الكتاب المبين ! .

الابنة ضحية الظلم

الغضب عاصفة تهدم فى طريقها كل شئ ، والقسوة قرينة الغضب ترحل معه أين رحل وأينما حل ، وإذا اتحد الغضب مع القسوة ولدا وليدهما الشرعى : الظلم .

وقد قال صلى الله عليه وسلم : لا تغضب .

وقال صلى الله عليه وسلم : الراحمون يرحمهم الرحمن .

وقال : اتقوا الظلم ، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة .

كل هذا نسيته تلك المرأة وهى تضرب خادمتها بقسوة متناهية لأنها كسرت آنية ثمينة من الخزف رغما عنها ، صفعتها بقوة ناسية كل أبجديات الرحمة والصفح والغفران ، فذهبت الخادمة المسكينة إلى غرفتها وجوفها يشتعل حنقا كبركان ثائر ، وعزمت فى نفسها الثائرة على الانتقام .

كانت الأم تذهب لعملها كل صباح تاركة ابنتها الصغيرة فى أيدى تلك الخادمة المصابة بجرح غائر فى صدرها ، وذات مساء أحست الأم أن ابنتها متعبة وتنام وهى تتألم ورغم مرور الأيام لم تتحسن الطفلة ، فشكت الأم فى الخادمة فقررت التغيب عن عملها لمراقبتها .

وصعقت الأم حين وجدت الخادمة تضع الديدان للإبنة فى أنفها فأسرعت بالإبنة إلى الطبيب ليعلن بدوره عجزه أمام حالة فريدة من نوعها وتستسلم

الأم لقضاء الله حيث ماتت الطفلة المسكينة ! ، ماتت الطفلة ضحية لظلم الأم وابتعادها عن معانى الرحمة والعفو والمغفرة ، ومن لا يرحم لا يرحم .

لقد ابتعدنا جميعا - إلا من رحم الله - عن كل هذه المعانى النبوية النبيلة ، تلك المعانى التى كانت من أهم سمات النبى العظيم ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ (٤)﴾ القلم ، فحق علينا قول ربنا إنا لظالمون ، وحاق بنا عذاب السماء حيث نزلت بنا الآفات التى لم يعرفها السابقون .

قال الفيروز آبادى : الرحمة سبب واصل بين الله وبين عباده ، وبها أرسل إليهم رسله ، وأنزل عليهم كتبه ، وبها هداهم ، وبها أسكنهم دار ثوابه ، وبها رزقهم وعافاهم .

وقال زعيم الرحماء عليه الصلاة والسلام : لا تنزع الرحمة إلا من شقى ، قال الطيبى رحمه الله فى شرحه لهذا الحديث : لأن الرحمة فى الخلق رقة القلب والرقة فى القلب علامة الإيمان ، فمن لا رقة له لا إيمان له ، ومن لا إيمان له شقى ، فمن لا يرزق الرقة شقى .

وقال صلى الله عليه وسلم : خاب عبد وخسر ، لم يجعل الله تعالى فى قلبه رحمة للبشر .

***

الجلاد الضحية

كانت تشكو من ضربه المبرح لها ، وترينى كل بضعة أيام أثرا من آثار عدوانه على جسدها الواهن ورأسها الصغير ، فكنت أحاول التخفيف عنها ببضع كلمات لا تسمن ولا تغنى من جوع لا تريح جسدها ولا تشفى رأسها .

وظللنا معا على هذه الحال سنوات عديدة تشكو ألمها وكرامتها الجريحة وأهون عليها بكلمات كسيرة وإن كانت كثيرة ، واهنة وإن كانت كبيرة ، لأن الألم العميق لا يشفى ببعض الكلمات أو اللمسات ولا يشعر بالنار إلا من بها إكتوى ولا يرحم اللديغ إلا من جرب لسع العقارب .

وذات ليلة روت لى بمحض الصدفة حين جرفنا الحديث فى تيار الماضى كيف أنه - وهو الزوج العنيف القاسى - عانى ويلات الحرب سنة سبعة وستين وكيف أن جسده القوى مليئ بالرضوخ والجروح والكسور التى التأمت بفعل الزمن وكيف عاش هذا الوحش سنوات بعد الحرب يفزع لأدنى صوت ويضطرب لأقل حركة عابرة بجواره ، بعد أن ذاق ألم الشظايا وعرف حرق القنابل .

وتعجبت لأفعال القدر كيف يسلط قنبلة عمياء ؟ ، أو شظية حارقة على أجساد تبدو فيها علامات القوة فتغدو ضعيفة هزيلة محرقة مشوهة ، ثم تمضى

أرواح تلك الأجساد فى رحلة الحياة تعذب أجسادا أخرى وأرواحا أخرى ، وتمضى الدنيا ونمضى معها فى دائرة العذاب ولسان حال المرء يقول :

أصبحت أخاف من الأشياء

كل الأشياء

فأخبئ وجهى فى عينى

أتمدد حينا فى جفنى

يتضائل بدنى

يتثائب فوق رموش العين

فيوقظنى شبح فى العين يطاردنى

ألمح جلادا وسط العين

يغرس فى عينى سيف الخوف

فيفصل جفنى عن عينى

ينطفئ الضوء على العينين

أدمنت الخوف

ففى عينى ، نام الجلاد (*)

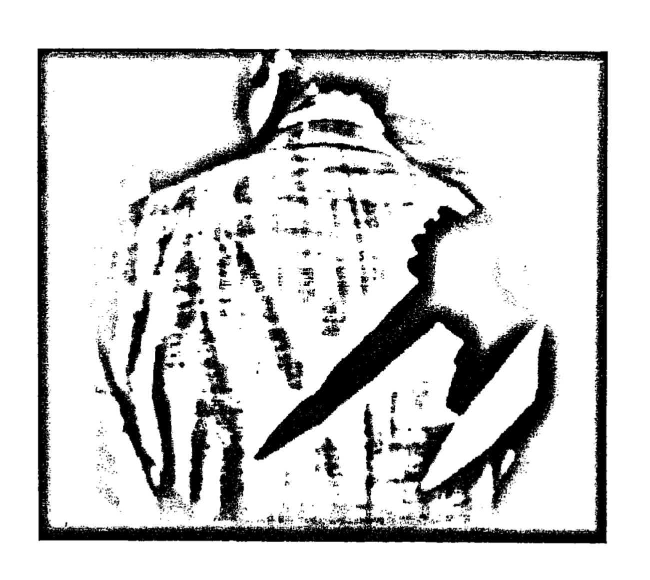
(*) فاروق جويدة : الديوان : ص ٤١٨ مركز الأهرام للترجمة والنشر ط السادسة .

هكذا بين دفات الأيام يصبح المذبوح سكينا ويغدو المجلود جلادا حتى تختلط فى العين الصور ويصعب على المرء تدوين الحكايا ، فإنه ساعتها يصعب عليه إدراك كنه الحقيقة ويختلط الحابل بالنابل فيجهل الراوى كيف يفصل بين صورة القاتل وصورة القتيل ، صورة الجلاد وصورة الضحية ، صورة السجان وصورة السجين ، فعند احتدام الأحداث تختلط الأحداث .

وأخذت أمسح بيدى دمعات أخذت تنحدر على وجنتى تلك المرأة التى تغير لونها بفعل شمس الحقول وقلت لها :

ـ عذرا أيتها المسكينة سامحى ذلك الزوج الذى سامك ألوان العذاب فبينما كانت يداه تضربانك كان قلبه لا يرى فيك إلا عدو المعركة وبينما كانت عيناه تنظر إليك نظرات كلها غضب وقسوة ، لم يكن فى الحقيقة يبصرك وإنما كان يبصر شواهد المعركة وجنود العدو يندفعون نحوه بخناجر الغدر وبنادق الموت .

***



شيطان النفس

تاهت الفتاة الصغيرة التى ناهزت الخامسة عشر من العمر من أهلها حين كانوا يتنزهون فى غابة مخضرة الأشجار كثيرة الثمار وارفة الظلال على شاطئ أحد البحار .

وأخذت تبحث عن أهلها فى ليلة ازدادت عتمتها وأوحشت ظلمتها دون جدوى ، فساقتها قدماها إلى كوخ صغير حقير فقير ، بعد أن أعياها السير ، فلما طرقت الباب طرقات واهنة بيديها الصغيرتين النحيلتين فتح لها الباب شاب جميل المحيا باسم الثغر ، فلما سألها عن حالها شرحت له دون إسهاب ما وقع لها من تيه وضياع ووحشة وسط القفار والمفازات . ولما كان الشاب بمفرده تردد فى إدخال الفتاة ترددا كبيرا فقد علم بفطرته النقية الطاهرة وسجيته البريئة أن الشيطان سيكون ثالثهما . لكن حالتها وكآبة منظرها ووحشتها فى تلك الأماكن منعته من ردها وإغلاق الباب فى وجهها ، فقد وجد أن باب الكوخ فى تلك الساعة المتأخرة من الليل سيكون لها باب رحمة إذا ما وجدت عنده بعض الزاد والراحة والدفء .

ودخلت الفتاة إلى الكوخ فهالها ضؤوه ودفئه وحرارته التى ردت إليها الروح وبقايا الحياة بعد أن كاد الصقيع أن يقتلها بالخارج ، فجلست حيث

قادتها قدماها وقدم لها الشاب بعض الطعام . قوت يمنع عنها الموت ويبقى فيها الحياة دون أن يسمن بدنا أو يغنى جوعا . وأتت الفتاة على ما قدم لها بسرعة تنمّ عن جوعها الشديد وخواء بطنها حتى من اللحم القديد ، ونامت الفتاة فى مكانها بلباسها البسيط الذى يوحى بأنها من أسرة بسيطة ، وقلبها يدعو الله أن يكفيها شر نفس ذلك الشاب الذى ألجأتها الليلة إلى المبيت عنده ، فى حجره .

ومكث الشاب فى مكانه بعد أن رفع الصفحة التى أنهت على ما فيها من زاد ودثرها بغطاء غليظ الحاشية . مكث ينظر إليها ونفسه تراوده على الاقتراب منها ، فهى رغم تغير هيئتها بسبب التيه إلا أنها تبدو عليها سيماء الجمال وآيات الملاحة ، لكنه كان يغض الطرف الفينة تلو الفينة ، فلما خاف على نفسه تعدد النظرات وتكرار الهفوات أتى إلى شمعة فوضع إصبعه السبابة عليها حتى احترق وقال لنفسه بصوت خفيض : هكذا مس النار .

ثم جلس هنيهة فراودته نفسه مرة أخرى على النظر إلى الفتاة النائمة وقد تهدل شعرها الناعم الأسود الفاحم فوق جبينها الأنور فهم بالاقتراب منها فرجع القهقرى ووضع خنصره فوق لهيب الشمعة حتى احترق ، فدمعت عيناه من أثر الألم وأخذ يبتهل إلى الله ودعاؤه دعاء المضطر أن يصرف عنه كيد الشيطان ونزعات النفس الأمارة بالسوء فأخذته سنة من النوم ثم أفاق بعد قليل ليجد الفتاة وقد تعرت ساقها ، وقد ظهر منها استدارة ولمعان وبياض مشوب باحمرار ، فذهل عن نفسه ، وأخذ يصارع شهوته التى فاضت عن حدها .

فلما كاد أن يسير إليها سقط على وجهه فجرح فى أنفه وسال دمه ساخنا حارا على وجهه المتألم ،فانشغل بنفسه عنها وتذكر الآخرة ورأى برهان ربه فانطلق إلى الشمعة وأحرق بنصره بلهيبها ، ومكث غير بعيد عن الشمعة يتأمل حاله وابتلاء الله له فى ليلته الصعيبة العصيبة .

لكن الفتاة تقلبت فزحزح عنها الغطاء أكثر وأكثر وهى ذاهبة فى ثبات عميق لا تدرك شيئا ولا تعى حالها وما فعلته بالشاب المسكين من وجيعة وكى وألم وسهر ، حتى أوشك الفجر أن ينفجر ، فلما هَمَّ بالقيام إلى صلاته أوعز إليه الشيطان أن يستر جسد الفتاة بالغطاء ،فلما اقترب منها وأمسكت يديه بالغطاء زاد من جفوته عنها بدل أن يسترها به فانطلق من فوره إلى الشمعة التى كادت أن تذوب مع ضوء الفجر ولسع إبهامه ،فلما صدرت عنه أنة حاول أن يكتمها .

استيقظت الفتاة بعد تلك الليلة الرهيبة التى كابد فيها الفتى الويلات فأخذت تلم شعثها وتساوى هندامها وشكرت الفتى على كرمه وحسن ضيافته وأدبه الجم ثم انصرفت لحال سبيلها حيث عرفت فى ضوء النهار ما عَمَّ عليها من الطريق فى أول الليل وعتمته ،فوصلت إلى أهلها دون أن يقربها الشيطان .

وحين علم أبوها بما حدث لها فى تلك الليلة وكيف أن ذلك الشاب الأمين قد حفظ لها جسدها وعرضها من الدنس استخار الله وذهب إلى الفتى فى كوخه البعيد وشكره على ما فعله فى حق ابنته من كرم وحسن حفظ وجوار ،وطلب إليه أن يتزوج ابنته ،فكاد الفتى أن يغشى عليه طربا ،لكنه ذهب إلى مصلاه وسجد شكرا لله ثم حَسَّن من هيئته وذهب مع الشيخ إلى ابنته ليخطبها ويعقد عليها ،بعد أن عرف وخبر بالتجربة أن من ترك شيئا لله عوضه الله خيرا منه .

إذا ما خلوت الدهر يوما فلا تقل

خلوت ولكن قل علي رقيب

ولا تحسبن الله يغفل ساعة

ولا أن ما تخفيه عــــنه يغيب

لهونا عن الأعمال حتى تتابعت

علينا ذنوب بعدهـــــن ذنوب

***

هاتف قتل ثلاثة

طالبة هى بمدرسة الفتيات ،رأت فى يوم من الأيام حين خروجها من المدرسة شابا أسقط رقم هاتفه أمام سيارته وانطلق ، فتناولت رقم الهاتف وذهبت إلى منزلها فطلبت الرقم فرد عليها الشاب بميوعة وتعرف إليها وتعرفت إليه ، وتواصلت المكالمات يوما بعد يوم ،وليلة بعد أخرى ،حتى انشغلت به وكلف بها فتواعدا على اللقاء ، وكما يقال : نظرة فتبسم فتحدث فموعد فلقاء وتلاقيا ، وتعددت اللقاءات ، وبعد أن كانت فى الأماكن العامة أصبحت فى الأماكن المغلقة ، مرة فى شقته وأخرى فى شقة صديقه ، مرة تجلس بجواره ومرة مبتعدة عنه قليلا ،حتى تمكن الهوى من قلبيهما فغلبها على نفسها حتى واقعها ، وبعد أن أفاقت من سكرتها أخذت تبكي خجلا وخزيا بعد أن فقدت أعز ما تملك الفتاة ،فحاول أن يهدأ من روعها فقال لها :

- لا تظنى أن هذه هى النهاية لكنها البداية .

ورحلت الفتاة إلى منزلها ونامت وهى تحلم بليلتها الحمراء الفائتة وأخذت تتذكر كلماته لها وهى فى جو مفعم بالسعادة .

ومضت الأيام وهما فى رحلتهما معا إلى الهاوية حيث طريق اللاعودة وذات يوم قبضت عليه الشرطة لأنه مشتبه فيه بسبب بعض المخدرات التى وجدوها

فى سيارته ، وزج به الى السجن وزاره صديقه ليواسيه فطلب منه أن يذهب إلى شقته ليخرج منها عشيقته التى تركها بمفردها ليشترى بعض الحاجيات ويعود مسرعا إليها فقبضت عليه الشرطة فى الطريق .

وذهب الصديق الوفى ومعه مفتاح الشقة ليفتح الباب للعشيقة ففوجئ حين تقابلت العيون وهى فى الفراش شبه عارية أن المصونة أخته فانهال عليها ضربا وهو لا يشعر بشئ حوله ثم ذبحها بالسكين وترك الشقة وولّى هاربا لا يلوى على شئ .

واستطاع العاشق السجين أن يخرج من السجن بكفالة فى اليوم التالى وعاد إلى شقته ليجد المصيبة تنتظره فقرر الهرب إلى قريته البعيدة لكن صديقه أخا الفتاة القتيلة فاجأه وقتله ، ولما أفاق من غضبه وبركانه وثورته فوجد أمامه الجثتين على الأرض مضرجتين فى دمائهما قتل نفسه هو الآخر ، ومات ثلاثة بسبب رقم هاتف ، فهل من معتبر ؟! .

***

جزاءً وفاقا

اتهموه فى قتل امرأة ومات قتيلا هو الآخر ، لكن القدر لم يظلمه ، بل لقد نال الجزاء الأمثل لأمثاله فمن قتل يقتل ولو بعد حين ، والقتل أنفى للقتل ، كان يعمل فى الجزارة وجرى دم الذبائح فى دمه وأحس بتعطش للدماء التى عاش يراها ويجرى يده فيها ليل نهار .

وذات ليلة خطب امرأة نسيبة حسيبة زانها جمال وبهاء وشباب وضياء ، ولما كان هو من بيئة تقل عنها فى كل شئ ، أدبا وفكرا ومستوى اجتماعيا ، فقد رفضه أهلها ، وأبت هى الزواج منه لأنها كانت محبة لغيره ، أحبت ابن خالها ورغب فيها ورغبت فيه ، والمرأة إذا أحبت وفت وإذا وفت ضحت وإذا ضحت فنت فى محبوبها وذابت فيه ، حتى لا ترى أحدا غيره ولا ترجو فى دنياها سواه ! ، وباء بالفشل الذريع فقد عشق تلك الفتاة ونسى فى عشقها عمله وأصبحت شغله الشاغل حتى أنسته أهله وماله .

ومرت الأيام ونسيت الفتاة الحسيبة أمر ذلك الجزار الخاطب وتزوجت من حبيبها وابن خالها وأنجبت منه ولدا يشبهه خُلقا وخَلقا لكنه فارقها ليعمل فى بلد آخر ليقع القدر المقدور .

ركبت المرأة الشابة والزوجة المحبة مركبا لتعبر به النهر ومعها ولدها ، فرآها الجزار . وكان هو حادى المركب . بعد أن فشل فى جزارته لحبه لها وانقطاعه عنها فعمل حاديا لمركب صغير ، وانفرد بها ، فهاله رؤيته لها فاقترب منها وذكرها بنفسه فلم تتذكره ،لكنها دققت فى ملامحه فعرفت فيه الخاطب القديم فأوجست خيفة منه حين رأت فى عينيه شيطانا ماردا ، طامعا فى جسدها رغم احتشامها وعدم تبذلها فى لباسها ، رغم أنها تحمل بين أحضانها صبيها الصغير .

وهم بها وهمت بأن تهرب منه إلى الماء لولا أن خشيت على ولدها من الغرق وأخذ يراودها عن نفسها فرفضت وأبت وتمنعت تمنعا شديدا حتى آذته بأظفارها فى وجهه وذراعيه ، فلما يئس منها أخرج من جيبه سكينا . وقد تذكر مهنته القديمة وحبه للدماء . وطعنها بها طعنات متتابعة ثم ألقى بها فى الماء وولدها يصرخ صراخا شديدا ، فثنى به فأرداه قتيلا ثم ألقى به فى الماء خلف أمه ،وأخذ ينظر فى بقع الدماء فوق الماء وهو يضحك ضحكا هستيريا .

وباع القارب ورجع لمهنة الجزارة مرة أخرى بعد أن شفى غليله ممن دمرت قلبه وحياته .

وذات يوم حدث خلاف بين رجل وامرأة أمام دكانه فتدخل بينهما وأثناء الشجار قتل الرجل المرأة فتهموه فيها وأودعوه غياهب السجن وبعد مدة وجيزة أعدم فى سجنه ولم يحزن عليه أحد .

هكذا عاش وسط الدماء ومات فى بركة من الدماء ! .

***

كنت بدمها أحبك

تعودت كل يوم أن أمشى قليلا فأخرج لمدة نصف ساعة ثم أعود ، وفى خط سيرى يوميا كنت أشاهد طفلة لم تتعد السابعة من العمر ، كانت تلاحق فراشا اجتمع حول إحدى أنوار الإضاءة المعلقة فى سور أحد المنازل ، لفت انتباهى شكلها وملابسها ، فكانت تلبس فستانا ممزقا ولا تنتعل حذاء ، وكان شعرها طويلا وعيناها خضراوتين ، كانت فى البداية لا تلاحظ مرورى ، ولكن مع مرور الأيام أصبحت تنظر إلى ثم تبتسم .

فى أحد الأيام استوقفتها وسألتها عن اسمها فقالت بدور ، فسألتها عن منزلها فأشارت إلى غرفة خشبية بجانب سور أحد المنازل ، وقالت هذا هو عالمنا أعيش فيه مع أمى وأخى بدر ، وسألتها عن أبيها فقالت : خرج ذات صباح ولم يعد ، توفى فى حادث مروع ، ثم انطلقت تجرى حين رأت أخاها بدرا يخرج راكضا إلى الطريق .

فمضيت فى حال سبيلى ، ويوما مع يوم كنت كلما مررت أستوقفها لأجاذبها أطراف الحديث ، سألتها : ماذا تتمنين ؟ .

قالت : كل صباح أخرج إلى نهاية الشارع لأشاهد الطالبات وهن داخلات إلى المدرسة ، أشاهدهن يدخلن إلى هذا العالم الصغير من باب صغير ،

ويرتدين زيا موحدا ،ولا أعلم ماذا يفعلن خلف هذا السور ، أمنيتى أن أصحو كل صباح لألبس زيهن وأذهب وأدخل من هذا الباب لأعيش معهن وأتعلم القراءة والكتابة ، لا أعلم ماذا جذبنى فى هذه الطفلة الصغيرة ، قد يكون تماسكها رغم ظروفها الصعبة وقد يكون عيناها ، لا أعلم الآن السبب ، كنت كلما مررت من هذا الشارع أحضر لها شيئا معى ، حذاء ، ملابس صغيرة ، ألعابا ، بعض الطعام أو الحلوى .

وفى مرة قالت لى إن خادمة تعمل فى أحد البيوت القريبة منهم قد علمتها الخياطة والتطريز وطلبت منها أن أحضر لها قماشا وأدوات خياطة ، فأحضرت لها ما طلبت .

ثم طلبت منى فى أحد الأيام طلبا غريبا قالت لى : أريدك أن تعلمنى كيف أكتب كلمة أحبك مباشرة ، جلست أنا وهى على الأرض وبدأت أخط لها على الرمل كلمة أحبك ،على ضوء عمود إنارة فى الشارع كانت تراقبنى وتبتسم ، وهكذا كل ليلة وكنت أكتب لها كلمة أحبك حتى أجادت كتابتها بشكل رائع .

وفى ليلة غاب قمرها حضرت إليها ، وبعد أن تجاذبنا أطراف الحديث قالت لى : أغمض عينيك ولا أعلم لماذا أصرت على ذلك ، فأغمضت عينى ، ففوجئت بها تقبلنى ثم تجرى مبتعدة وتختفى داخل الغرفة الخشبية وفى الغد حصل لى ظرف طارق استوجب سفرى خارج المدينة لاسبوعين متواصلين ، لم أستطع أن أودعها فرحلت وكنت أعلم يقينا أنها تنتظرنى كل ليلة .

وعند عودتى لم أشتق لشئ فى مدينتى أكثر من شوقى لبدور ، فى تلك الليلة خرجت مسرعا وقبل الموعد وصلت المكان الهادئ وكان عمود الإنارة الذى نجلس تحته لا يضئ ، كان المكان هادئا أكثر من اللازم . أحسست بشئ

غريب وانتظرت كثيرا فلم تحضر فعدت أدراجي وهكذا لمدة خمسة أيام ، كنت أحضر كل ليلة فلا أجدها ، عندها صممت على زيارة أمها لسؤالها عنها فقد تكون مريضة ، استجمعت قواى وعزيمتى وذهبت للغرفة الخشبية ، طرقت الباب على استحياء فخرج بدر ثم خرجت أمه من بعده وقالت عندما شاهدتنى : يا إلهى لقد حضرت وقد وصفتك كما أنت تماما ثم أجهشت فى البكاء علمت حينها ان شيئا قد حدث وعندما هدأت الأم سألتها ماذا حدث أجيبينى أرجوك ، قالت لى : لقد ماتت بدور وقبل أن تموت قالت أعلم أنه سيأتى لا محالة ليسأل عنى أعطيه هذه القطعة ،فسألت أمها ماذا حدث ؟ .

فقالت لى : توفيت بدور فى إحدى الليالى بعد أن أحست بحرارة وإعياء شديدين فخرجت بها ألى أحد المستوصفات الخاصة القريبة ،فطلبوا منى مبلغا ماليا كبيرا مقابل الكشف والعلاج ، ولما كنت لا أملك شيئا تركتهم وذهبت بها ألى أحد المستشفيات العامة وكانت حالتها تزداد سوءا ،فرفضوا إدخالها بحجة عدم وجود ملف لها بالمستشفى ، فعدت إلى البيت لكى أضع لها الكمادات ولكنها كانت تحتضر بين يدى ، ثم أجهشت فى بكاء مرير ، لقد ماتت ،ماتت بدور .

لا أعلم لماذا خانتنى دموعى ، لأنى لم أستطع البكاء لا أعرف كيف أصف شعورى وقتها .

خرجت مسرعا ولا أعلم لماذا لم أعد إلى مسكنى بل أخذت أذرع الشارع وفجأة تذكرت الشئ الذى تركته لى بدور ،فتحته فوجدت قطعة قماش صغيرة مربعة وقد نقش عليها بشكل رائع كلمة أحبك وامتزجت بقطرات دم متحجرة يا إلهى لقد عرفت سر رغبتها فى كتابة هذه الكلمة ، وعرفت الآن لماذا كانت

تخفي يديها في آخر لقاء ، كانت أصابعها تعاني من وخز الإبرة التي كانت تستعملها للخياطة والتطريز كانت أصدق كلمة حب في حياتي ، لقد كتبتها بدمها ،بجروحها ،بألمها .

كانت تلك الليلة هي آخر ليلة لي في ذلك الشارع ،فلم أرغب في العودة إليه مرة أخرى ، فهو كما يحمل ذكريات جميلة يحمل ذكرى ألم وحزن يحمل ذكرى بدور .

احتفظت بقطعة القماش معي وكنت أحملها في كل مكان أذهب إليه ، وبعدها بشهر وأثناء تواجدي في مركب في البحر الأبيض المتوسط أخرجت قطعة القماش من جيبي ، وقررت أن أرميها في البحر لا أعلم لماذا ،ربما لأنها تحمل أقسى ذكرى في حياتي ، وقبل غروب الشمس امتزجت دموعي بدم بدور ، بكلمة أحبك ، ورفعت يدي عاليا ورميتها في البحر ، وأخذت أركبها وهي تختفي عن نظري شيئا فشيئا ودموعي تسألني لماذا ؟ ، ولكنني كنت لا أملك جوابا ، بدور سامحيني فلم أعد أحتمل الذكرى ، سامحيني فقد حملتني أكثر مما أحتمل ، بدور سامحيني فأنا لا أستحق الكلمات التي نقشتيها ، بدور سامحيني .

***

(المجموعة الثانية)

نعيش الحب .. ولكن !!

(توهجتُ مثل انطفاء الرماد ولكنني جمرة محترقة)

[صاحب خليل إبراهيم]

أيام وشهور وسنون
يمر العمر ، يسقينا الدموع
نعيش التجارب ونبكي ، وقد نضحك ..
لكننا في نهاية المطاف نبقى تائهين ..
نقسم أننا عشنا ..
لكنّ الحقيقة أننا متنا مرات ومرات
آه من هذه الحياة ، حيرة ودموع وعذاب
يا رب ، كلمة أقولها للخلاص من التيه ..
يا رب ، لا تحرمنا الحياة بعد أن عشناها ..
يا رب ، لا تسقينا الويلات بعد أن تركناها ..
يا رب نفوسنا ضائعة فارحمها ..
آه يا نفسُ ، اصرخي ..
اصرخي صرخة الخلاص كما صرختِ صرخة الميلاد ..
آه ، ثم آه ، ثم آه ..
أين المتعة ، أين الراحة ، أين السلوى ؟ !
رحماك يا رباه ! !

***

حرائق الحب

(١)

لغز هي ،لغز كبير ،عاشت تُحِب وتُحَب ،والآن وقد ماتت يعِن لي أن أكتُب قصتها ،فقصتها قصة الحب ذاته ،والحب قد يكون نوراً يضئ الطريق وقد يكون ناراً تحرق كل مَن في دائرته ،وقد ذاقت نوره واحترقت بناره ، أحبت البشر وأحبت الخالق ، أحبت الحياة وأحبت الموت ، أحبت السماء وأحبت الأرض ، أحبت النور وعشقت الظلام ، كانت نفساً تواقة ، أحبت كل شئ ، كل شئ .

أحبت في الحلال وعاشت سنوات في العشق المنبوذ ،مشاعرها عرفت مذاق الممنوع ،والممنوع دائماً مرغوب ،عرفت سِحر العيون وخطابها ،نبتت بأرض فيها شمس الحب تعانق وجه الحرية ،وكانت في العمر مسافرة ومعها عيناه وأغنية .

قالت كلمة (حبيبي) مراراً ،ويالها من كلمة لمن ذاقتها وعرفتها ، كلمة لها سحر الليل وراح النسيم وسكن النفوس ! .

كانت تحب الحب ذاته ، وصوت الحب بالنسبة للمرأة أقوى من صوت الضمير ،والنساء ترتعش قلوبهن وتهتز كأوراق الشجر إذا مر بها ريح الحب ثم تعود فتسكن ،وغيرهن تهتز قلوبهن فتضطرب وتهيج إلى حد يعز عليها

فيه أن ترجع إلى السكينة ،وقد كانت من الصنف الثاني ،وقد تعبت في حبها كثيراً لأنها أحبت في الخيال أكثر مما أحبت في الواقع ،عاشت التجارب لكنها غرقت فيها بكل ما فيها ، والشخص منا حين يحب لا يحب في الواقع شخصاً حقيقياً بل وهماً خلقه في خياله ،والجمال الذي تضيفه على المحبوب إنما ينبع من أنظارنا نحن لا من صورته هو ! .

وتعذبت لأنها صُدمت ،وأشد وخزات الموت سكوت دقات قلب خُلِق للحب ولم يوفق له ! ، وعرفت معنى الحياة لأنها أحبت كثيراً ،والحب رسالة القلب في الحياة ،وعاشت للحب رغم أن الحب قد يكون هو العذاب ولكنّ الحرمان من الحب هو الموت !! .

ولأنها عرفت الحب عاشت الحزن ؛فالحزن زهرة جافة على شجر ورد الحب ، أيوجد حزن وليس الحب مصدره ؟! ، يحزن الناس لأنهم يحبون ،والحب هو معدن كل شعور الإنسان ومصدر وجدانه ،ولا ينفعل الإنسان إلا إذا هيج الحب عواطفه وأضرمها بناره وإذا هجمت جيوش الخسائر على منازل الحب أصبح حزناً! .

كانت ابنة وحيدة لرجل ثري أرمل ،ولأنها كانت أمله ووحيدته فقد دللها تدليلاً كبيراً ،تلبس ما تشاء وتخرج كيفما تريد وتقابل من تحب ، كانت كابنة السلطان ، حقيقة لا مجازاً ،وكانت حسناء جميلة ،يتهافت عليها الشبان كما يتهافت الفراش على النار ،وكانت نفسها متواضعة وروحها عذبة كجمالها ،جمال كالأرض حميمة وبهية وكالشمس قديمة وحبيبة ، كانت مصرية ، اللون القمحي والشفة الخمرية والشعر الأسود الناعم المسترسل ، تجمعت فيها كل عصور الحب وكل نجوم الشرق ، جمالها الحائر يقول :

أنا بنت النيل وزهور الجيل بكل جميل تلقاني
بقمر الليل وموج البحر وشمس الصحراء تراني
في وجه الدنيا كتبوني ، بلغات الدنيا نقلوني . .
واشتاقوا لي وأحبوني ، أنا لست امرأة عادية . .
يريدها من يريدها كما هي ، لا يتغير فيها شئ . .
فهي كما يحب وكما يشتهي بل كما يتمنى ويحلم . .
أريدك أنثى . .
ولا أدعي العلم في كيمياء النساء . .
ومن أين يأتي رحيق الأنوثة . .
وكيف تصير الظباءُ ظباءْ
وكيف العصافير تتقن فن الغناء
أريدك أنثى
وأجهل كيف يُركّب هذا العقار الخطير
وأجهل كيف الفراشة تكتب شعرا
وكيف الأنامل تقطر شهدا
وأجهل أي بلاد يبيعون فيها الحرير
أريدك أنثى
بخطك هذا الصغير الصغير
ولست أفرق بين بياض يديك
وبين مداسات هذا البيان

ويكفي حضورك كي لا يكون المكان
ويكفي مجيئك كي لا يجيء الزمان
وتكفي ابتسامة عينيك كي يبدأ المهرجان
فوجهك تأشيرتي لدخول بلاد الحنان
أريدك أنثى
كما جاء في كتب الشعر منذ ألوف السنين
وما جاء في كتب العشق والعاشقين
وما جاء في كتب الماء ، والورد ، والياسمين
أريدك وادعة كالحمامة
وصافية كمياه الغمامة
وشاردة كالغزالة
ما بين نجد . . وبين تهامه (*)

ولدت وتربت مدللة حتى صارت في السابعة عشرة ،وبدأت تتفتح كزهرة مر عليها الربيع بأنامله ،عرفت إيهاب في إحدى الحفلات ،نظرة من عينيه شغلتها ، كلمة منه مست شغاف قلبها ولعبت بأوتاره .

عرف اسمها ،هويدا ،أخذ رقمها وأخذت رقمه ،كلمها في الليل ،كان في الخامسة والعشرين ولم يكن غنياً ثرياً مثل والدها ،بل كان شاباً مكافحاً ، لكنه ـ وهذا ما لم تكن تعرفه ـ متسلق كبير يريد أن يصل إلى أموالها ولا مانع من أن يصل إليها هي أيضاً ،فهي جميلة فاتنة يتمناها أي شاب ،وكان وسيماً جذاباً ، حلو الحديث عذب المنطق فجذبها إليه .

(*) نزار قباني : الديوان صـ ٢٧٢ ــ بتصرف .

مكالمة والأخرى وصارت ملكاً له ، ترجع من مدرستها لتكلمه ،وصارت تذاكر حتى تدخل الجامعة لتقابله ومن ثم يتقدم لها ويتزوجها ، كانت تعيش أحلى أيامها ولياليها ،يكلمها ليلاً حتى الفجر وتقابله ظهراً بعد دراستها ، ولم يكن أبوها غافلاً عن هذا كله لكنه لم يكن يضايقها في أي شئ ،وكان يتصور أن هذا كله إلى أجلٍ وسينتهي حتماً عندما تفارقها المراهقة ،لكنّ الله لطف بها وشاء أن يظهر إيهاباً على حقيقته ، إذ دخلت الجامعة وصار لها أصدقاء كثيرون ، ومنهم سهام ،فتاة تفوقها غنى ،ومن ثمَّ تركها إيهاب فجأة ، والتف بلسانه المعسول حول سهام ،وظلت هويدا تعيش ليالي السُهد والشوق والحرمان حتى عرفت توفيق ،وكان زميلاً لها في السنة الثانية من الجامعة ، بكلية الإعلام .

ولم يكن حبها جارفاً عنيفاً كحبها لإيهاب ،بل كانت في حبها هادئة متعقلة ،رزينة متمهلة ،لكنها لم تحكِ لأبيها شيئاً عن توفيق ،لقد عزلت نفسها عن أبيها فقد عرفته حليماً صبوراً فخافت سطوة ذاك الحليم الصبور .

وخانها ذكاؤها هذه المرة ،كان لابد أن تخبر أباها ،لم يكن ليحرمها من شئ بل كان سيهديها نصحه كما فعل في الحب السابق ،وكان يترك لها مطلق الحرية في التصرف ،ومرت الأيام تلو الأيام ،وتقدم لها توفيق ،ولأنه من عائلة محترمة ثرية وافق عليه أبوها ، وبعد شهرين تم الزواج ، وبدأت بزواجها مأساتها الحقيقية في الحياة .

***

(٢)

كانت هويدا من هؤلاء الفتيات المدللات. كما أسلفت. ولذلك ظنت أن زواجها من توفيق سيكون حلقة أخرى من حلقات تدللها ، ولكن توفيق رغم حبه الشديد لها لم يوفق في المعاملة معها منذ الليلة الأولى ، لقد فشل في أداء دوره كزوج ، ومر شهر العسل دون جديد يُذكر ، وكان لزاماً عليه أن يعود لعمله ، أهداها خاتماً ماسياً وزاد عليه هدايا أخرى ليكفر عن خطئه في حقها .

لقد كانت عذراء وبقيت عذراء كما هي ، وكانت تعاني في صمت ، منعها حياؤها من أن تخبر أباها ، ومرت الليالي جافة باردة تحتاج فيها إلى الدفء فلا تجده ، زوجها بجوارها كالوسادة !! .

وقررت أن تغير نمط حياتها ، نزلت لتعمل في إحدى شركات أبيها رأست شركة كبيرة ، أصبحت لا ترى توفيق إلا ليلاً ، وكرهته وكرهت رؤيته ، لم يكن الزواج بالنسبة لها نهاية قصة حب ، بل بداية قصة أخرى لذيذة ، وفقدت كل شئ على أعتاب غرفة نومهما ، وأخذت تبحث في حياتها عن أي جديد كل يوم ، تشتري ما لا تحتاجه ، تتنزه مع الأصدقاء ، تأكل دون جوع ، لكنّ كل هذا لم يملأ فراغ نفسها ، كانت نفسها تواقة لشئ آخر ، شئ لم تجربه من قبل ، شئ انتظرته ولم تجده .

وذات صباح كانت في غرفتها ترتدي ملابس شفافة تبدي روعة جسدها وبياض بشرتها ، حين دخل عليها الخادم ليدخِل لها الإفطار ، ورأت في عينيه نظرات جديدة عليها ، نظرات كلها رغبة وهيام ، رغبة لم تجدها في عين زوجها .

وفكرت في الخادم ، كان طويلاً قوي البنيان ،ولديه رغبة قوية فيها ،لقد لاحظت هذا مراراً ،فلم لا ؟! ،لكنها تتأفف من الرذيلة ،تكره الحرام ثم أتنزل نفسها إلى مرتبة الخادم ؟! ،أتخون زوجها الذي أحبها من رأسها حتى أطراف قدميها ؟! ،إنه لا ذنب له ،أجل لا ذنب له ،إنها تكره الخيانة ،تكره الظلم ، ولكن أليس ما هي فيه ظلم كبير لها؟ .

إنها تعاني كل ليلة وترى في نومها أسوأ الكوابيس وأبشع الأحلام ،لماذا كُتب عليها أن تكون كذلك ،زوجة لزوج عاجز ضعيف ؟!.

وفكرت في الطلاق ، أخذت تفكر فيه لفترة طويلة ، وبالفعل طلبت الانفصال عن توفيق ،صرخ فيها قائلاً :إنني أحبك يا هويدا ،أحبك من كل قلبي ، أقسم لك أنني سأعالج ،وسوف أكون كما ترغبين .

قالت له باكية :لقد حاولت العلاج أكثر من مرة وفشل الطب في علاجك ، لقد تعبت ،تعبت ،أنا مصممة على الطلاق ،قل لأهلك ولأبي أنني عاجزة عن الإنجاب وطلقني .

- لن أطلقك ، إنني أحبك ، أحبك .

- إذا لم تطلقني سوف أخبر الجميع بكل شئ ،أجل سأخبرهم بعجزك الفظيع ، قل لي لماذا تزوجتني ؟ لتحطمني معك ؟! .

وبعد محاولات يائسة أخبرت أباها بكل شئ ،ووقف له أبوها حتى طلقها ، وصارت حرة ،وقررت أن تعيش بعد ذلك بأسلوب مختلف ،وكانت كارثة أخرى !.

***

(٣)

كانت هويدا حلوة المنظر ، متعلمة ، حلوة الكلام ، رقيقة العاطفة ، مرهفة الحس ، في لسانها بيان ولوجهها بيان غير الذي في لسانها ، تعرف فيه الكلام الذي لا تتكلم به ، ولها طبع شديد الطرب للحياة ، مسترسل في مرحه ، خفيف طيّاش ، لو أثقلتَه بجبل لخفّ بالجبل ، تحسبها دائماً سكرى تتمايل من طربها ، كأن أفكارها المرحة ، هي في رأسها أفكار وفي دمها خمر .

وكان هذا الطبع السكران بالشباب والجمال والطرب يعمل عملين متناقضين ، فهو دلال متراجع منهزم ، وهو أيضاً جرأة مندفعة متهجمة .

وهزيمة الدلال في المرأة إن هي إلا عمل حربي ، مضمَرة فيه الكرة والهجوم ، وكثيراً ما ترى فيه النظرة ذات المعنيين ، نظرة واحدة ، بها تؤنبك المرأة على جراءتك معها ، وبها أيضاً تعذلك على أنك لست معها أجرأ مما أنت ! .

قررت هويدا أن تحيا بأسلوب مختلف ، كثر خروجها ودخولها ، عرفت شباباً كثيرين ، صارت حياتها مُفرغة لشيئين ، العمل والرجال ، عرفت كثيرين ، جمال وطاهر وصلاح وغيرهم ، إما معها في العمل وبعد العمل وإما في النادي ، وإما في المصيف ، إما بعلم والدها ، وإما من خلف ظهره .

عاشت لخمس سنوات حياة عابثة ، تفعل كل شئ إلا أكبر شئ ، تهدر أخلاقها وتحافظ على عذريتها ، حتى عرفت هشام ، وعرفت معه معنى الحب الطاهر الذي فارقها منذ علاقتها بإيهاب ، حبها الأول ، وعرف عنها هشام ما أحبت أن يعرفه فقط ، خدعته ببراءتها الظاهرة وغشته بأفقها الواسع وغرته بحلو بيانها ، وجذبته بجمالها النادر وجسدها الفائر .

فقرر أن يتزوجها بعد أن أخبرته أنها مطلقة وأعلمته بسبب طلاقها ،لكنها طلبت منه أن يكون زواجهما عرفياً دون أن يعرف أحد ،إلا أبوها ،حتى أهله لا يعرفون ،ولأنه كان مغرماً بها وافق ،كان يريد أن يمتلكها يمتلك كل شئ فيها ،روحها وجسدها وعقلها وكل شئ .

وتم الزواج عرفياً كما أرادت ،وعاشت حياتها كما حلمت أن تعيشها ،نهاراً في عملها وليلاً معه ،وسعدت به كما لك أن تتخيل أن تسعد ،فتاة حُرمت من كل ما تحلم به المرأة في بداية حياتها ثم ذاقت مذاق الرجولة الحقة كما تحلم به كل امرأة في رجلها ،وعاشت معه سنتين لكنه بعد أن ارتوى منها انصرف لعمله ولم يعد يهتم بها ،لم تعد تعنيه اللفتات الصغيرة التي كانت تسعدها .

وهكذا الرجل حين يشبع من أنثاه ينشغل بأي شئ عنها خاصة ذلك النوع من الرجال الذي يحب عمله أكثر من أي شئ ،وقد كان هشام محباً لعمله لدرجة الوله ،كان صاحب شركة للاستيراد والتصدير ،والمشكلة أنّ هويدا كانت امرأة بدون تقاليد ،(فما هي المرأة بدون تقاليد؟ ،إنها البلاد الجميلة بغير جيش ،إنها الكنز المخبوء معرضاً لأعين اللصوص ،تحوطه الغفلة لا المراقبة ،هبْ الناس جميعاً شرفاء متعففين متصاونين ،فإن معنى كلمة "كنز" متى تُركت له الحرية وأُغفل من تقاليد الحِراسة أوجدت حريته هذه بنفسها معنى كلمة "لص"!) .(*)

وقد ملكت هويدا شيئين ،الفراغ والحرية ،أضف إليهما الشباب والجمال وانشغال زوجها عنها وانصرافها عن الدين ،كل ذلك ذلل لها أية صعوبات ،كان من الممكن أن تحول بين أية فتاة وبين الرذيلة .

(*) مصطفى صادق الرافعي .

عندما تزوجت توفيق كرهت أن تخونه ، لكن حينما انشغل عنها هشام خانته بكل جوارحها مع رجل يعمل عنده ، مع وكيله وسكرتيره الخاص ، الذي كان منافقاً خالصاً ، يرتدي لكل شخص يعامله قناعاً خاصاً به .

كلما سافر هشام التقيا على فراشه ، وفي غرفة نومه ، عاشت مع فريد شهوراً في الحرام رغم أنه متزوج وله ولدان ، لكنه خسيس النفس لم يستطع مقاومة جمالها الأخاذ وجسدها الفاتن ، خان صديقه ومن يعمل عنده منذ سنوات خمس ، خان لقمة العيش التي اشتركا فيها ، كان منافقاً رهيباً ، يداه في شفتيه ، وقلبه في رجليه ، يدوس به ويدوس عليه ، منافق !! .

من أمثال الإنجليز : لا خداع كخداع من تأتمنه فيخونك ، ومن اللؤم أن تخون إنساناً وثق بك .

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : لا يعجبكم من الرجل طنطنته ولكن من أدى الأمانة وكف عن أعراض الناس فهو الرجل .

وشاء الله أن يكتشف هشام خيانة هويدا ، رجع من سفره ذات مرة فجأة فرآهما معاً في غرفة نومه ، وكانت الفجيعة الكبرى ، هرب الفاجر الخائن فريد وأخذت هويدا تبكي بين قدمي هشام وتتوسل إليه ألاَّ يفضحها لكنه ذهب بها إلى والدها وطلقها أمامه بعد أن أخبره بكل شئ ، وكانت تلك المرة أول مرة تظهر فيها هويدا منكسرة ذليلة خاضعة ، وبكى والدها لأول مرة ، بكى خزياً وهو يرى وحيدته في ذلك الموقف المخزي .

ومكث أياماً في أسوأ حالة والأطباء عليه ذهاباً وإياباً ، وهويدا في كل تلك الليالي نجم منكسر ، أو شهاب محترق ، بعد أن كانت فوق السماء صارت تحت الأرض ، كل حياتها ظلام في ظلام .

كأن ثوباً في السـمـاء احترق　　فلم يزل حتـى استحال الأفق
ظل دخاناً أو بقايـا رمـق　　ولم يعد إلا ذيـول الشفق
العيش أمر تـافه والمنـون　　والحكمة الكبرى بها كالجنون
وهكذا نمضي وتمضي السنون　　وهكذا دارت رحاها الطحون
في شجها حينـا وفي طعنها　　سينقضي العمر وأين الفـرار
وثورة الشاكين من طـحـنها　　نَوْحُ الشظايا وعتّابُ الغبار (*)

وأفاق والدها من صدمته ، أفاق ليداري مصيبته ، أفاق ليربيها من جديد ، لكنه لم يجدها ، لقد هربت من المنزل ، لم تستطع مواجهة والدها ، وبحث عنها فأعياه البحث وأضناه ، حتى نشرت الصحف خبر مقتلها على يد سفاح قتل سواها كثيرات ولم يستلم والدها جثتها بل دفنت في مدافن عامة لتلقَ جزاءها عند ربها ، كما لقيت جزاء أفعالها في دنياها .

***

وإني لأتساءل في دهَش : ألم تكن هذه المرأة تعلم عاقبة أمرها وسوء مَرَدِّ أفعالها وجرائمها ؟ ، لعمري كيف تجعل هذه الحياة للناس قلوباً مع قلوبهم ، فيحس المرء بقلب ويعمل بقلب آخر ، يعتقد ضرر الكذب ويكذب ، ويعرف معرة الإثم ويأثم ، ويوقن بعاقبة الخيانة ثم يخون ، ويمضي في العمر منتهياً إلى ربه ما في ذلك شك ولكنه في الطريق لا يعمل إلا عمل من قد فر من ربه ؟!(**)

(*) رومانتيكيات إبراهيم ناجي .
(**) مصطفى صادق الرافعي

إن الحب ليس خطيئة ،لكنه نعمة ربانية كبيرة إذا كان في نطاق الشرع ، ولنا في يوسف عليه السلام قدوة تُحتذى : ﴿ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ ۖ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ ۖ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٢٣) وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ ۚ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ (٢٤) ﴾ يوسف.

(إن هذا البرهان يفسره كل إنسان بما شاء ،فهو كالمفتاح الذي يوضع في الأقفال كلها فيفضها كلها ،فإذا مثّل الرجل لنفسه في تلك الساعة أنه هو وهذه المرأة منتصبان أمام الله يراهما ،وأن أماني القلب التي تهجس فيه ويظنها خافية إنما هي صوت عال ليسمعه الله ،وإذا تذكر أنه سيموت ويُقبر وفكر فيما يصنع الثرى في جسمه هذا ،أو فكر في موقفه يوم تشهد عليه أعضاؤه بما كان يعمل ،أو فكر في أن هذا الإثم الذي يقترفه الآن سيكون مرجعه عليه في أخته أو بنته .

إذا فكر في هذا ونحوه رأى برهان ربه يطالعه فجأة ،كما يكون السائر في الطريق غافلاً مندفعاً إلى هاوية ،ثم ينظر فجأة فيرى برهان عينه ،أترونه يتردى في الهاوية حينئذ أم يقف دونها وينجو ؟ ،احفظوا هذه الكلمة الواحدة التي فيها أكثر الكلام وأكثر الموعظة وأكثر التربية ،والتي هي كالدرع في المعركة ،بين الرجل والمرأة والشيطان ، كلمة : { رَأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ } .(*)

***

(*) مصطفى صادق الرافعي .

وقفة ..

أيتها المرأة ، أيتها الفتاة ، أيتها الشرقية ..

احذري أن تُخدعي عن نفسك ، إن المرأة أشد افتقاراً إلى الشرف منها إلى الحياة .

إن الكلمة الخادعة إذ تقال لكِ هي أخت الكلمة التي تقال ساعة إنفاذ الحكم للمحكوم عليه بالشنق .

يغترونك بكلمات الحب والزواج والمال ، كما يقال للصاعد إلى المشنقة : ماذا تشتهي ؟ ماذا تريد ؟ ، الحب ؟ الزواج ؟ المال ؟ هذه صلاة الثعلب حين يتظاهر بالتقوى أمام الدجاجة .

الحب ؟ الزواج ؟ المال ؟ يا لحم الدجاجة ! بعض كلمات الثعلب هي أنياب الثعلب .

أيتها الشرقية ! احذري احذري اخذري السقوط .

إن سقوط المرأة لهوله وشدته ثلاث مصائب في مصيبة ،سقوطها هي ، وسقوط من أوجدوها ، وسقوط من توجدهم ! .

نوائب الأسرة كلها قد يسترها البيت ، إلا عار المرأة .

مصيبة العار تقلب الحيطان كما تقلب اليدُ الثوب فتجعل مالا يُرى هو ما يُرى ، والعار حكم ينفذه المجتمع كله ، فهو نفي من الاحترام الإنساني .

أيتها الشرقية : احذري احذري !! (*)

***

(*) مصطفى صادق الرافعي - وحي القلم - جـ١



أم البطل

التجارب أنوار فى ظلمات الحياة ، وهذا ما يجعل منها مقصد السائرين فى الدروب ، ومن هذه القصة نرى كيف تصبح الأم -رغم قسوة الظروف واستحالة الحياة . أما يحق لأبناء يشقون طريقهم بكفاح وصبر مثلها لأنها كما قال الشاعر :

الأم مدرسة إذا أعددتها أعددت شعبا طيب الأعراق

مات زوجها وترك لها سبعة أيتام ، ولم يترك خلفه إلا الديون ، لكن الأرملة الشابة لم تيأس ، بل اشتغلت طباخة فى مطعم شعبى ، تعمل فيه من الصباح حتى المساء ثم تعود إلى صغارها لتطعم أفواههم الجائعة بما تحمله معها من طعام قليل ، لم تذهب إلى الأقارب ولم تمد يدها إلى الأصدقاء ولا الجيران فمن يطعمك يوما يملك بعدها ! .

لم تكن السيدة السوداء تدرك أنها ستغدو وبعد سنوات أما لمليونير ، تعيش فى قصر يحيط به الخدم والحشم وعندها ثلاث طباخات ! ، فما الذى حدث ؟ ، أصبح ولد من أولادها ملاكما كبيرا وبطلا للعالم فى الوزن الثقيل ثلاث مرات يتقاضى فى المباراة الواحدة ٣٥ مليون دولار ، يستقطع منها فورا

٣,٥ مليون دولار يرسلها لحساب مؤسسة خيرية للأيتام أسسها وينفق عليها من دخله الكبير فى عالم الملاكمة .

إنه العملاق الذى هزم تايسون وأسقطه من عرش الملاكمة ، ذلك الذى لم يكن يمتلك وهو صغير ملابس للتدريب فكان يستدين ملابس زملائه بعد انتهاء تدريبهم ليتمرن بها ، ولكن ذلك لم يفت فى عضد " إيفاندر هوليفد " ، وذات يوم بعد إنتهاء التدريب وجد حقيبة ضخمة فيها جميع ملابس التدريب أرسلها له محسن مجهول ، وتكررت الهدايا بين الحين والحين حتى وصل الشاب الصغير إلى بطولة العالم وأصبح بين عشية وضحاها يكسب الملايين ، وحاول كثيرا أن يعرف شخصية المحسن الذى يرسل إليه الهدايا فلم يفلح .

يقول هولفيلد : إن هناك ثلاثة أسباب أدت إلى نجاحه المدوى : الأول إيمانه الكامل بالله وأن ما يحدث من نجاح أو فشل هو من إرادة الله الذى لا راد لإرادته .

الثانى : هو أمه التى كافحت من أجله وعلمته أن التميز هو طريق النجاح .

وعندما كان يكنس الشوارع لكسب رزقه كانت تمر به وتقول له : لابد أن تكون أحسن كناس فى الشارع .

أما السبب الثالث : فهو المحسن المجهول .

إن هولفيلد كان يحمل فى طيات قلبه إيمانا بالله يفوق ما يحمله بعض الشباب الموحد ، فكيف لو اجتمع التوحيد مع التميز والكفاح ؟ .

***

ابن أمير المؤمنين

لم يشأ أن يكون من أبناء الدنيا ، ترك كل ما فيها لمن ابتغاها واختارها ، ترك إخوته في بذخهم ودنياهم ورياشهم ورئاستهم واختار النجاة والعزلة والعبادة ، وآثر سعادة القلوب على متاع الأبدان ، كان بوسعه أن يعيش حياة البذخ في القصور بين الخدم والحشم والحور ، حيث تمد له الدنيا من زخارفها ما يشاء وتبتسم له الأيام وتأنس به الليالي ، لكنه اهتدى بهداية الله :

﴿ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِنْ كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ (٣٥) ﴾ الزخرف .

لم يغتر بمباهج الفناء بل استشعر في حياته مراتع الدود بعد مماته واعتبر بمن سبقوه وتفكر وتدبر ، كما أمره الله فاهتدى إلى الحق : ﴿ وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ ۘ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ۚ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٨) ﴾ القصص .

ورفض أن يأكل إلا من كسب يده ، فاقتات من ثمرة جهده وكدحه ونصبه وإرهاقه ، ترك قصور أبيه الرشيد وعاش بالبصرة في كوخ متواضع ، لكن أنسه

بالله أغناه عن صخب القصور ومتاعها الزائل ، وجعله في نشوة روحية لو عرفها الملوك لقاتلوه عليها ، هذا هو أحمد العابد الزاهد بن هارون الرشيد ملك الأرض مشارقها ومغاربها ، لم يكن يملك من دنياه غير "مر" و "زبيل" ، والمر هو المسحاة التي يستخدمها العامل البنّاء في دهان الحائط بالطين ، أما الزبيل فهو القفة التي يحمل فيها الطين إلى مكان العمل ، يفترش الأرض ويلتحف السماء .

حفظ القرآن مبكراً ووعي تعاليم الرسول صلى الله عليه وسلم وعرف قدر الدنيا وقيمتها فما هي إلا عرض زائل وفناء متواصل ، دار أولها بكاء وأوسطها عناء وآخرها فناء .

دارٌ إذا ما أضحكت في يومها   أبكت غداً ، قبحاً لها من دارِ

فحين رأى الخلافة سيقت إلى أبيه تركه وهاجر إلى حياة العمل والزهد والورع والتقوى والفقر المدقع .

وفي سوق البصرة يجلس أحمد مع الحرفيين كل يوم سبت ينتظر من يعرض عليه العمل كطيّان لقاء درهم ودانق ، ينفق منهما طوال الأسبوع حيث لا يطعم إلا خبز الشعير والملح ويمضي أيامه كلها في العبادة والسعي للآخرة ، يلبس جبة قديمة من الصوف ونعلين أشد منهما قدماً .

فكيف مات ذلك الراشد ؟ ، احتاج إليه رجل فذهب يبحث عنه فلم يجده في السوق فدلوه على كوخه فذهب إليه فوجده نائماً على الأرض وتحت رأسه قطعة من الطوب فقال له : هل تريد شيئاً ؟ ، فقال : إنني سأموت فإذا مت فاغسلني واغسل جبتي ومئزري وكفني بهما وافتق جيب الجبة فإن فيه خاتماً من ياقوت فخذه واذهب به إلى الرشيد وأعطه له .

فلما صعدت روحه الطاهرة إلى بارئها والمكان كله يفوح برائحة المسك كأنما الملائكة ألبسته حلة من الرضوان دفنه في مقبرة الفقراء وذهب بالخاتم إلى الرشيد فلما رآه بكى وانتحب وقال :ها هو ذا ولدي قد مشى إلى ربه دون أن يأخذ من الدنيا شيئاً ، أبوه خليفة المسلمين ، قَبلَ أن يعمل طياناً على أن يكون أميراً ،ثم ذهب ليلاً إلى قبره وظل يبكي مطرقاً إلى الأرض يملؤه الأسى وهو يتمتم بعبارات الحزن والأسف .

يقول الرجل : أخذت نفس الخليفة تذوب حسرات ، وأحس أن الخلافة بجلالها وفخامتها لم تعد تساوي عنده جناح بعوضة !! .

* ويسألني : ما الموتُ ؟ قلت : تفسخٌ
وعودٌ إلى أصل العناصر من قبلِ
وصمت رهيب ليس يُعرف كنهُه
برغم انتصار العلم في عالم الجهلِ
فعِشْ ما تعش واجمع أفانين عِيشةٍ
فلابد يوماً أن تعود إلى الأصلِ

***



{وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ} صدق الله العظيم (*)

كلمات في المحبة..

- إذا غرست شجرة المحبة في القلب، وسقيت بماء الإخلاص ومتابعة الحبيب أثمرت أنواع الثمار، وآتت أكلها كل حين بإذن ربها، أصلها ثابت في قرار القلب وفرعها متصل بسدرة المنتهى.

ولا يزال سعي المحب صاعداً إلى حبيبه لا يحجبه دونه شيء: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ۚ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُولَٰئِكَ هُوَ يَبُورُ (١٠)﴾ فاطر.

- محبة الله إذا تمكنت من القلب ظهرت آثارها على الجوارح من الجد في طاعته والنشاط لخدمته والحرص على مرضاته والتلذذ بمناجاته والرضا بقضائه والشوق إلى لقائه والأنس بذكره والاستيحاش من غيره والفرار من الناس والانفراد في الخلوات وخروج الدنيا من القلب ومحبة كل من يحبه الله وإيثاره على كل من سواه.

(*) البقرة - الآية ١٦٥.

ـ المحب يهرب إلى العزلة والخلوة بمحبوبه ،والأنس بذكره كهرب الحوت إلى الماء والطفل إلى الماء .

ـ ليس للعابد مستراح إلا تحت شجرة طوبى ،ولا للمحب قرار إلا يوم المزيد . اشتغل به في الحياة يكفك ما بعد الموت .

ـ أعجب الصبر صبر المحبين .

ـ ليس العجب من قوله : (يحبونه) وإنما العجب من قوله (يحبهم)

ـ لو تغذى القلب بالمحبة لذهبت عنه بطنة الشهوات .

ـ إذا أحب الله عبداً أنشأ في قلبه محبته .

ـ لو لم يكن في محبة الله إلا أنها تنجي من عذابه لكان ينبغي للعبد أن لا يتعوض عنها بشيء أبداً .

ـ إقبال الليل عند المحبين كقميص يوسف في أجفان يعقوب .

ـ ليس الشأن أن تحب الله ولكن الشأن أن يحبك الله .

ـ قلوب المحبين لا تطمئن إلا بذكره ،وأرواح المشتاقين لا تسكن إلا برؤيته

ـ الخوف يبعدك عن معصيته ،والرجاء يخرجك إلى طاعته والحب يسوقك إليه سوقاً .

ـ قرة عين المحب في طاعة المحبوب .

***

رابعة العدوية

لم يمت من له أثره ... وحياة من السِيَرْ
أدعه غائباً وإنْ ... بعدت غاية السفر
آيب الفضل كلما ... آبت الشمس والقمر
رُب نور متمم ... قد أتانا من الحُفَرَ
إنما الميْتُ من مشى ... ميتَ الخير والخبر
من إذا عاش لم يُفَدْ ... وإذا مات لم يضر
ليس في الجاه والغنى ... منه ظل ولا ثمر
قُبُحَ العِز في القصو ... رِ إذا ذلّت القَصَر(*)

دخل لص بيت رابعة العدوية ليلاً لكي يسرقه فلم يجد فيه غير إبريق فيه ماء فلما أراد الخروج قالت له عندما رأته يتسلل إلى الباب : يا هذا ، إن كنت من الأذكياء، فلا تخرج بغير شئ .

فقال اللص : إني لم آخذ شيئاً ، فقالت له : يا مسكين توضأ بهذا الإبريق وادخل في هذه الحجرة وصل ركعتين فإنك ما تخرج إلا بشئ .

ففعل اللص ما أمرته به ، فلما قام يصلي رفعت رابعة بصرها إلى السماء وقالت :

(*) الشوقيات : الديوان جـ٢ / ٧٢

. سيدي ومولاي ،هذا أتى بابي فلم يجد شيئاً عندي وقد أوقفته ببابك فلا تحرمه من فضلك وثوابك .

فلما فرغ اللص من صلاة الركعتين لذّت له العبادة فما برح يصلي إلى آخر الليل ،فلما كان وقت السحر دخلت عليه رابعة فوجدته ساجداً وهو يقول في سجوده معاتباً نفسه :

إذا ما قال لـــي ربــي أما استحييت تعصيني
وتخفي الذنب من خلقي وبالعصـــيان تأتيني
فمـا قــولي لـــه لما يعاتبني ويــقصـــيني

فلما انتهى الرجل من ليلته قالت له : كيف ليلتك ؟ فقال : بخير وقفت بين يدي مولاي بذلي وافتقاري فقبل عذري وجبر كسري وغفر ذنبي وبلغني المطلوب ،ثم انطلق هائماً على وجهه .

فرفعت رابعة كفها إلى السماء وقالت :يا سيدي ومولاي ،هذا وقف ببابك ساعة فقبلتَه ، وأنا قد عرفتُك بين يديك أتُراك قبلتني ؟! .

***

هذه هي عذراء البصرة البتول ،معلمة العلماء ،شهيدة الحب الإلهي ،رابعة بنت إسماعيل العدوي .

ونحن إذ نتحدث عن رابعة إنما نتحدث عن نفس من النفوس الملكوتية تلك النفوس التي ينطبق عليها قول الحق عز وجل : {إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٩)} الشعراء ، ذلك القلب الذي يسلم من كل الآفات ،قلب يحثك على طاعة الله ، ونفس ملكوتية تحثك على طاعة الرب تعالى ،تحثك على الحياء من

الوقوع في الذنب ،خوفاً من غضب الله وانتقامه ،وقد قال صلى الله عليه وسلم : (الحياء من الإيمان) .

بدأت رابعةُ طريق صلاحها منذ طفولتها حين قالت لأبيها وهم جلوس على الطعام بين بناته وامرأته (أمها) :

- يا أبتِ لستُ أجعلك في حِلٍ من حرام تطعمني إياه .

فكف أبوها عن الطعام مندهشاً وسألها :

- أرأيتِ يا رابعة إن لم أجد إلا حراماً ؟ .

فقالت له بثقة ويقين :

- نصبر يا أبتِ في الدنيا على الجوع خيراً من أن نصبر في الآخرة على النار .

كانت رابعة من أولئك الخلق الذين غلبت عليهم محبة الخالق فلم يقدروا على مخالطة الخلق ، ولم تكن تقدر عن السكون عن الذكر ،ولا تنم إلا لغلَبة ، أحرقت بدنها في طاعة مولاها ،فيا حُسْن مخمورها ما ألذ سُكره ،ويا عيش قلقها ما أحسن وجده !! .

فهل رأيتَ قطُ عراة أحسن من المحرِمين ؟ .

هل رأيتَ للمتزينين برياش الدنيا سمتاً كأثواب الصالحين ؟ .

هل رأيتَ خماراً أحسن من نعاس المتهجدين ؟ .

هل رأيت سُكراً أحسن من صعق الواجدين ؟ .

هل شاهدت ماءً صافياً أصفى من دموع المتأسفين ؟ .

هل رأيت رؤوساً مائلة كرؤوس المنكسرين ؟ .

هل لصق بالأرض شئ أحسن من جباه المصلين ؟ .

هل حرك نسيم الأسحار أوراق الأشجار ،فبلغ تحريكه أذيال المتهجدين ؟ .

هل ارتفعت أكف وانبسطت أيد فضاهت أكف الراغبين ؟ .

هل حرك القلوب صوت ترجيح لحن أرونة وترٍ كما حرك المشتاقين ؟ .

***

وشاء القدر أن تُبتلى رابعة ،فمات والدها الرحيم بها الكافل لها بعد الله ، ثم لحقت به أمها فصارت يتيمة الأبوين ،فلجأت في صغرها إلى مولاها جل في علاه ،وراحت تصلي وتبتهل إلى الخالق سبحانه أن يغفر لأبويها وأن يظل عملهما الصالح ممتداً موصولاً بعد رحيلهما عن هذه الدار الفانية ،فرفعها أنسها بالقرب من القريب المجيب ،من وحشة اليُتم إلى مرتبة النعيم الروحي واللذة التي يتمناها ملوك الأرض فلا يجدونها ،فزادها ذلك صفاء وجلاء وصقلاً لذاتها ،وامتلأ قلبها بحب الله ،والحب الإلهي إذا انقذف في قلب مؤمن فإن الله هو الذي أولاه هذا الشرف ، فهو سبحانه يمنح وُده مَن شاء ومَن اصطفى مِن عباده ،ولا شئ أطيب للعبد ـ كما يقول ابن القيّم رحمه الله تعالى ـ ولا ألذ ولا أهنأ ولا أنعم لقلبه وعيشه من محبة فاطِره وباريه ، ودوام ذِكره والسعي في مرضاته ،وهذا هو الكمال الذي لا كمال للعبد بدونه ،وله خُلق الخلق ولأجله نزل الوحي وأُرسلت الرسل وقامت السموات والأرض ووُجدت الجنة والنار ،ولأجله شُرعت الشرائع ووُضع البيت الحرام ووجب حجه على الناس إقامة لذكره الذي هو من توابع محبته والرضا به .

وحفظت رابعةُ القرآن الكريم قبل أن تبلغ العاشرة ،وحفظت كذلك عشرات الأحاديث النبوية عن ثقاة الرواة .

وكانت أول امرأة هتفت بحب الله تعالى ، وعزمت على أن تنقطع عن الدنيا زهداً فيها وتتفرغ لعبادة حبيبها الذي لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار ولا يدخل قلبها حب سواه .

وجاء الابتلاء الثاني لرابعة ، وكان عاصفاً جامحاً عنيفاً ؛ فقد أصاب البصرةَ القحط والجدب واقتحم الجوعُ كل بيت إلا قصور الأمراء ، فنشط وسط بحر هذه المحنة تجار الرقيق وتعاونوا مع اللصوص وقطاع الطرق على بيع الصغار والأولاد الذين هم دون سن البلوغ فوقعت رابعة في أسر العبودية وانتقلت من حياة الحرية إلى قيود الرق وأغلال العبودية فعملت خادمة في بيت تاجر فظ جافٍ غليظ القلب .

وعاشت في بيت سيدها كأي مؤمنة بين الخوف والرجاء ، وراحت تناجي مولاها جل وعلا قائلة :

- إلــهـي ، أنا يتيمة معذبة أرسف في قيود الرِق ، سوف أتحمل كل ألم ونصب وأصبر عليه ، ولكن أشد العذاب : ذلك الذي يؤلم روحي ويقطع أوصال نفسي ، منشأه ريب يدور في خلدي ، هل أنت راضٍ عني ؟! ، تلك غايتي .

إن اليتم والرِق والعذاب والاستعباد وكل الآلام والمتاعب والمنغصات والمحن لا تساوي عند رابعة العدوية شيئاً إذا قورنت بعدم رضا القريب المجيب .

***

يظهر إيمان المؤمن عند الابتلاء ، فهو يبالغ في الدعاء ولا يرى أثراً للإجابة ، ولا يتغير أمله ورجاؤه ولو قويت أسباب اليأس ؛ لعلمه أن الحق جل وعلا أعلم بالمصالح ، أو لأن المراد منه الصبر أو الإيمان ، فإنه يحكم عليه بذلك إلا وهو يريد من القلب التسليم لينظر كيف صبره ، أو يريد كثرة اللجأ والدعاء .

فأما من يريد تعجيل الإجابة ويتذمر إن لم تتعجل ،فذاك ضعيف الإيمان يرى أن له حقاً في الإجابة وكأنه يتقاضى أجرة عمله .

أما سمعت قصة يعقوب عليه السلام :يبقى ثمانين سنة في البلاء ورجاؤه لا يتغير ،فلما ضم إلى فقد يوسف فقد بنيامين لم يتغير أمله ولكنه : ﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٨٣) ﴾ يوسف.

وقد كشف هذا المعنى قوله تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ ۖ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ ۗ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ (٢١٤) ﴾ البقرة .

ومعلوم أن هذا لا يصدر من الرسول والمؤمنين إلا بعد طول البلاء وقرب اليأس من الفرج ،ومن هذا قول الرسول صلى الله عليه وسلم :(لا يزال العبد بخير ما لم يستعجل) قيل له :ما يستعجل ؟ ،قال :(يقول :دعوت فلم يُستجب لي) .

وهكذا عاشت رابعة في ابتلائها تدعو الله ولا تيأس من روحه : ﴿ وَلَا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ ۖ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ

(٨٧) ﴾ يوسف . ومرت بمحنتها كما يمر شعاع بمستنقع آسن فلا المستنقع يلوث الشعاع ولا الشعاع يطهر ماء المستنقع ، وصفت نفس رابعة وصارت صلتها بالسماء أقوى من صلتها بالأرض ، وعلاقتها بالملأ الأعلى أشد وأقوى من روابطها بالبشر .

وذات ليلة أصاب الأرق التاجر وخاصم النوم جفنيه وراح يتقلب على فراش الشوك فترامى إلى مسمعه صوت خافت ينبعث من غرفة رابعة فعصفت برأسه الظنون والهواجس ، هل بلغت برابعة الجرأة أن تدعو عشيقها إلى داره ؟ .

وتسلل إلى غرفتها كالثعبان فرآها ساجدة وهي تناجي ربها بصوت يخنقه البكاء : إلهي ، أنت تعلم أن قلبي يتمنى طاعتك ، ونور عيني في خدمتك ، ولكنك تركتني تحت رحمة هذا المخلوق القاسي من عبادك .

***

كان التاجر يحملها ما لا تطيق من المهام والأشغال ، لكنها كانت تختلي بنفسها في الليل لتستريح من عناء النهار وعذابه ، ولم تكن راحتها في النوم او الطعام بل كانت في الصلاة والمناجاة ، فكانت ممن تنطبق عليهم الآية الكريمة : ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ (٧) ﴾ الحجرات .

ما الذي جعل تلك الطفلة تتجه إلى العبادة ؟! .

قد يكون التأثر بأبيها الصالح العابد سبباً ،لكنّ السبب الأساسي في رأيي هو طبيعة شخصيتها وطبيعة الدور الذي اختارته السماء لتؤديه في البصرة في تلك الفترة ، وفي التاريخ الإسلامي كله بعد ذلك .

***

ورآها سيدها ، وسمع دعاءها ومناجاتها ، وشاهد تضرعها وصلاتها ، وأبصر قنديلاً فوق رأسها يحلق ، وهو بسلسلة غير معلق ، وله ضياء يملأ البيت كله ، ففزع وظل مسهداً يفكر حتى طلع النهار ، هنا دعا رابعة وقال لها : أي رابعة : وهبتك الحرية ، فإن شئت بقيت ونحن جميعاً في خدمتك ، وإن شئت رحلت أنى رغبت ، فما كان منها إلا أن ودعته وارتحلت وجعلت المساجد دارها ،(ويقال أنها احترفت العزف على الناي في حلقات الذكر وساحات المتصوفة ، والأناشيد في دنيا التصوف ، وعزف الناي عند المتصوفة ليس منكراً ولا بدعاً ؛ بل هو يبعث الوجد ويحرك القلب ويحلق بسامعه)(*) .

***

(*) طه عبد الباقي سرور: رابعة العدوية والحياة الروحية في الإسلام ، دار الفكر العربي ط٣ [١٩٥٧].

رابعة في خلوتها ..

أقامت رابعة أول أمرها بالصحراء بعد تحررها من الأسر ،ثم انتقلت إلى البصرة حيث جمعت حولها كثيراً من المريدين والأصحاب الذين وفدوا عليها لحضور مجلسها وذكرها لله والاستماع إلى أقوالها ،وكان من بينهم مالك بن دينار والزاهد رباح القيسي وسفيان الثوري المحدث والمتصوف شقيق البلخي .

وكانت تختلف عن متقدمي المتصوفة الذين كانوا مجرد زهاد ونُسّاك ؛ذلك أنها كانت صوفية بحق يدفعها حب قوي دفاق ، كما كانت في طليعة الصوفية الذين قالوا بالحب الخالص ،الحب الذي لا تقيده رغبة سوى حب الله وحده ، وكانت طليعتهم أيضاً في جعل الحب مصدراً للإلهام والكشف .

أحبك حبين حب الهـوى — وحبا لأنك أهـــل لذاكا

فأما الذي هو حب الهـوى — فشغلي بذكرك عمن سواكا

وأما الذي أنت أهــلٌ له — فكشفك لي الحجب حتى أراكا

فلا الحمد في ذا ولا ذاك لي — ولكن لك الحمد في ذا وذاكا

- لو كانت الدنيا لرجل ما كان بها غنياً ، لأنها تفنى !! .

- إلهي أنارت النجوم ،ونامت العيون ،وغلقت الملوكُ أبوابها ،وخلا كل حبيب بحبيبه ، وهذا مقامي بين يديك .

ـ إلهي ،هذا الليل قد أدبر ،وهذا النهار قد أسفر ،فليت شعري أقبلت مني ليلتي فأهنأ ،أم رددتها عليّ فأعزى ؟! فوعزتك هذا دأبي ما أحييتني وأعنتني ، وعزتك لو طردتني عن بابك ما برحت عنه لما وقع في قلبي من محبتك .

ـ يا رب ، أتحرق بالنار قلباً يحبك ، ولساناً يذكرك ،وعبداً يخشاك ؟! .

ـ سيدي ،بك تقرب المتقربون في الخلوات ،ولعظمتك سبّح الحيتان في البحار الزاخرات ،ولجلال قدسك تصافقت الأمواج المتلاطمات ،أنت الذي سجد لك سواد الليل وضوء النهار ،والفلك الدوّار ،والبحر الزخّار ،والقمر النوّار ،والنجم الزهّار ،وكل شئ عندك بمقدار ،لأنك الله تعالى العلي القهّار .

قال سفيان الثوري لرابعة :ما حقيقة إيمانك ؟ .

فقالت له :ما عبدته خوفاً من ناره ولا حباً لجنته فأكون كالأجير السوء ؛بل عبدته حباً وشوقاً إليه .

ـ (يا رب لو كنتُ أعبدكَ مخافة النار فأحرقني بها ،ولو كنت أطمع في الجنة فاحرمني منها ،وإن كنت لا أعبدك إلا لوجهك فلا تحرمني مشاهدته) .

ـ (يا رب كل ما كتبته لي من خير في الدنيا فأعطه لأعدائك ،وكل ما كتبته لي في الجنة فامنحه لأصدقائك ؛ لأني ما أطلب إلاّ وجهك) .

ـ (ليس للمحب وحبيبه بين ،وإنما هو نطق عن شوق ،ووصف عن ذوق ، فمن ذاق عرف ،ومن وُصف فلا اتصف ،كيف تصف شيئاً أنت في حضرته غائب ،بوجوده دائب ،وشهوده ذاهب ،وبوحك منه سكران ،وبفراغك له ملآن ،وبسرورك له ولهان ،فالهيبة تخرس اللسان عن الإخبار ،والحيرة توقف الجبان عن الإظهار ،والغيرة تحجب الأبصار عن الأغيار ،والدهشة تعقل العقول عن الإقرار ،فما ثمَ إلا دهشة دائمة ،وحيرة لازمة ،وقلوب هائمة ،

وأسرار كاتمة ،وأجساد من السُقم ،والمحبة بدولتها الصارمة وفي القلوب حاكمة) .

ـ كان صالح المرّي يقول كثيراً : من أدمن قرع باب يوشك أن يُفتح له ، فقالت له رابعة : ومتى أغلق هذا الباب حتى يستفتح ؟!.

فقال صالح : شيخ جهيل وامرأة علمت !!.

ـ تقول عبدة بنت أبي شوال مولاة رابعة رضي الله عنهما : كانت رابعة تصلي الليل كله ،فإذا طلع الفجر هجعت في مصلاها هجْعة خفيفة حتى يسفِر الفجر ، فكنت أسمعها تقول فزِعَة إذا وثبت من مرقدها : يا نفس كم تنامين ! وإلى كم تقومين ! يوشك أن تنامي نومة لا تقومين منها إلا لصرفة يوم النشور .

وكانت رابعة تصلي في اليوم والليلة ألف ركعة ،فقيل لها : ما تطلبين بهذا ؟ قالت : لا أريد ثواباً وإنما أفعله لكي يُسَرَ رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم القيامة ، فيقول للأنبياء : انظروا إلى امرأة من أمتي ، هذا عملها .

وقيل : إن رابعة صامت في إحدى المرات سبع ليال وسبعة أيام على التوالى ، فلم تكن تأكل شيئاً ولا تنام في الليل وانقطعت للعبادة ،وفي الليلة الثامنة وقد شق عليها قالت في نفسها : إلى متى هذا العذاب ؟!

فسمعت لتوها صوت الباب ،فلما فتحت ناولها أحدهم طعاماً في صحن فأخذته ووضعته لتوقد المصباح فجاء قط وأكل ما في الصحن وتبينت رابعة ما حدث فقالت : أفطر على حبة ماء ، وذهبت لتحصيل الماء فانطفأ المصباح وسقطت جرة الماء من يدها فصرخت : يا رب ،ماذا تريد بهذه المسكينة ؟ .

فسمعت هاتفاً يقول لها : يا رابعة لو شئت أعطيناك الدنيا ولكن سننزع من قلبك حبك لله ، لأن الحب لله وللدنيا لا يجتمعان ! .

فعندما سمعت ذلك نزعت عن قلبها كل حب للدنيا وللدنيويات .

ومضت ثلاثون سنة لم تُصلّ فيها لله دون أن تردد على نفسها أن صلاتها هذه هي آخر صلاة لها ، ولم تتوقف للحظة طوال ذلك أن تدعو الله أن يغرقها في حبه ، فلا يشغل قلبها بحب آخر خلاف حبه .

***

وجرت الحكمة على لسان رابعة وأفاض الله عليها من ينابيع الإلهام فقد كانت ذات قدرة فائقة خارقة في حفظ الحديث وعلم التأويل والتفسير حتى صارت في فترة وجيزة تنافس العلماء والفقهاء فيما يعلمون ويفقهون ، بل جعلت تُعلم العلماء وتفقه الفقهاء وتبسط الهدايا للمذنبين والحائرين .

وصارت حديث الناس لا في البصرة وحدها ولا في أرض الرافدين فقط ، بل في كل مكان يتحدث الناس عن ورعها وزهدها وتقواها ، وجعلت دارها مدرسة تعلم هؤلاء الأئمة والفقهاء والعلماء : الحسن البصري ، سفيان الثوري ، مالك بن دينار ، عبد الواحد بن زيد ، معروف الكرخي وغيرهم من العلماء والفقهاء والصالحين .

***

وعرفت بين أهل البصرة بأنها زاهدة عابدة انقطعت عن الدنيا وشهواتها فقد ارتفعت بأنوثتها عن مطالب الجسد وتناءت عن أودية الشهوات ، ورغم تهافت الخطاب عليها تهافت الفراش على الضوء إلا أنها أعربت وأعلنت عن رفضها للزواج ، إنها في مملكة الحب الإلهي سلطانة لها عرش وتاج ، زوارها الملائكة والمؤمنون والعلماء والفقهاء ومريدو العلم فهل تستبدل بذلك عرضاً زائلاً ومتاعاً فانياً ودنيا لا بقاء لها ؟! .

كان حب رابعة العدوية لله عز وجل قد نقلها من حال إلى حال ومن مقام إلى مقام بلغ بها مقام الصديقين والإحسان فأصبح قلبها لا يلتفت إلا لحبيبها عز وجل ولا تتجه بمشاعرها إلى عرض من أعراض الدنيا ،فكيف تترك هذا النعيم الخالد الإلهي وتخرج من الجنة القدسية لتتزوج وتصبح امرأة عادية مثل باقي النساء؟! .

***

رابعة في ميزان التاريخ ..

شوّه التاريخ هذه المرأة كثيرا ولاسيما في إعلامنا العربي ،والفيلم الذي يدّعي أنه يصور حياتها ما هو إلا كذب وافتراء عليها فهي لم تكن يوماً غانية أو فاسدة وإنما هي منذ طفولتها توجهت إلى خالقها بكل ذرة من كيانها .

أبداً لم تكن رابعة يوماً غانية ولا من أهل الفجور ولا ممن غرقوا في بحر الشهوات كما صورها بعض الكتاب وشوهتها السينما ،بل كانت ومنذ طفولتها تقية تتحرى الله في كل تعاملاتها وتشهد لها مقولتها وهي مازلت طفلة ، لأبيها : يا أبتِ لست أجعلك في حِل من حرام تطعمنيه !! .

هكذا كانت رابعة متدينة منذ طفولتها المبكرة وأيضاً في مراهقتها وشبابها حيث طلب الكثيرون زواجها منهم عبد الواحد بن زيد .وهو أحد مشاهير أهل التقوى خلال عصرها .فحجبته أياماً حتى سئلت أن يدخل عليها فقالت له : يا شهواني أطلب شهوانية مثلك ، أيَّ شئ رأيت فيّ من آل الشهوة ؟! .

فهل كان من المعقول أن يكون خاطبوها على هذا القدر من التقوى والسلطة والجاه وأن تكون رابعة من النساء ذوات الماضي الشائن ؟! ،سؤال طرحه الدكتور عبد المنعم الحفني في كتابه "رابعة العدوية إمامة العاشقين والمحزونين" وأجاب عنه بأن أقوال رابعة ومحاوراتها لرجال الفكر والدين والدنيا تدل على ذكاء عال جداً ووعي وحس دينيين وشخصية متميزة من كافة النواحي .

ولم تُعرف عن رابعة أي شائنة لا في سلوكها ولا في أقوالها ولا في محيطها من النساء والرجال .

وتوفيت رابعة العدوية رحمها الله سنة خمس و ثمانين ومائة من الهجرة ودفنت في بيت المقدس . قال ابن خلكان : قبرها يُزار وهي بظاهر القدس من شرقيه على رأس جبل يسمى الطور ، وعمرها ثمانون سنة .

***

الخاتمة

يقول أحد العارفين : (دخلت على الله من أبواب الطاعات كلها فما دخلت من باب إلا رأيت عليه الزحام فلم أتمكن من الدخول حتى جئت باب الذل والافتقار ، فإذا هو أقرب باب إليه وأوسعه ولا مزاحم فيه ولا معوق ، فما هو إلا أن وضعت قدمي في عتبته فإذا هو سبحانه قد أخذ بيدي وأدخلني عليه)!.

اعلم - رحمك الله وأيدك بلطفه - أن السائرين إلى الله أناروا السبيل لمن بعدهم بوصايا ذهبية ودروس سندسية ليستنير قلب المريد فيهتدي بأنوار السابقين ويقتدي بأفعالهم وقد خُلدوا بذكر مولاهم فذهبت أجسادهم وبقيت أرواحهم وآثارهم ، (فمن بورك له في عمره أدرك في يسير الزمن من منن الله تعالى ما لا يدخل تحت دوائر العبارة ولا تلحقه الإشارة) ، كما يقول ابن عطاء الله ، ويقول رحمه الله : كيف يشرق قلبٌ صورُ الأكوان منطبعة في مرآته ؟ ، أم كيف يرحل إلى الله وهو مكبل بالشهوات ؟ ، أم كيف يطمع أن يدخل حضرة الله وهو لم يتطهر من جنابة غفلاته ؟ ، أم كيف يرجو أن يفهم دقائق الأسرار وهو لم يتب من هفواته ؟! .

ويقول : لا ترحل من كون إلى كون فتكون كحمار الرحى ، يسير والمكان الذي ارتحل إليه هو الذي ارتحل منه ولكن ارحل من الأكوان إلى المكوّن : ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ (٤٢) ﴾ النجم ، وانظر إلى قوله صلى الله عليه وسلم : (فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه) .

فافهم قوله عليه الصلاة والسلام وتأمل هذا الأمر إن كنت ذا فهم والسلام .

(فرغ قلبك من الأغيار يملأه بمعارف الأسرار) .

(تطلعك إلى بقاء غيره دليل على عدم وجدانك له ، واستيحاشك لفقدان ما سواه دليل على عدم وصلتك به) .

(من أشواقهم إليه يبدأون وإلى مثولهم بين يديه ينتهون فإذا كان سبحانه "الآخر " الذي يقطعون الأعمار وثباً في السفر إلى رضوانه وجلاله ، فهو أيضاً "الأول" الذي يبدأون الرحلة من دعوته ومشيئته وتوفيقه ، ومن إرادته التي تقول للشيء كن فيكون ومن حوله وقوته اللذين لولاهما ما قدر أحد على حركة أو سكون .

ولو خطرتْ لي في سواك إرادةٌ　　　على خاطري سهواً قضيتُ بردتي

فالتخلي عن النفس كما يريد أهل الله هو في الحقيقة أمثل طريق لاستبقاء النفس وإعلائها ، فالخروج بها من ظلماتها إلى دائرة الضوء الذي يفيئه ويعكسه جلال ربها وبهاؤه بعثٌ جديد لها في أكمل نمط وأحسن تقويم .

***

لمن النجاة ؟

إن المرء إذا صهر روحه في بوتقة جسده كان كمن يطفئ النور ويصر على السير قدماً في الظلمات : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ ۗ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٣٩) أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ (٤٠) ﴾ النور .

أما إن أبلى في المجاهدة ووقع في قلبه النور تصرف في روحانيته وانسلخ من بشريته واتسعت ذاته في معاني السماء ، بمقدار ما ضاقت به من معاني الأرض ، فمن أراد أن تتصل نفسه بالله فلا يكون في نفسه شئ من حظ الدنيا بل ليتصل بها اتصال السبب ، فحياة الروح في الدنيا لها اتصال بحياة الجسد فهو مركبها وقالبها ، فأنت ترى رجال الروح يأكلون ويشربون ويلبسون ، ولكن هذا كله ليس فيه ذرة من أرواحهم على خلاف غيرهم من الناس أو العامة ،

فإيمانهم بالله فكرة تُذكر وتُنسى ، أما عملُهم فهو إيمانهم الراسخ بالجسم وشهواته ،يُذكر ولا يُنسى !! .

ومن ثم فلا يجري الشيطان من الأولين إلا في مجار ضيقة أشد الضيق لا يكاد ينفذ منها إلى فكر أو شهوة أو حلم من أحلام الدنيا ، أما الآخرون فالشيطان فيهم هو تيار الدم ،يعب عبابه في الأسفل والأعلى !.

***

إن ما كتبته ما هو إلا سلسلة متتابعة من الأفكار أردت بها تصوير الدنيا وإظهارها على حقيقتها ،فما هي إلا أنكاد وهموم ومتاعب : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ (٤) ﴾ البلد ،من ابتلى بحبها سامته عذابها ، أما من خبرها فقد نجا من شرها ،روي عن ابن عباس رضي الله عنهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : يؤتى بالدنيا يوم القيامة في صورة عجوز شمطاء زرقاء ، أنيابها بادية ،مُشوهة خلقها ،فتشرف على الخلائق فيقال : أتعرفون هذه ؟ فيقولون : نعوذ بالله تعالى من معرفة هذه ، فيقال : هذه الدنيا التي تفاخرتم عليها ،بها تقاطعتم الأرحام ،وبها تحاسدتم وتباغضتم واغتررتم ،ثم تُقذف في جهنم ، فتنادي أي رب أين أتباعي وأشياعي ؟ ، فيقول الله تعالى : ألحقوا بها أتباعها وأشياعها .

وكما يقول أبو يزيد البسطامي :ليس الزاهد من لا يملك شيئاً ، إنما الزاهد من لا يملكه شئ .

ألا إنما الدنيا مقيل لرائح   قضى وطراً من حاجة ثم هجّرا

وفي بعض الكتب : الدنيا غنيمة الأكياس وغفلة الجُهال ، لم يعرفوها حتى أُخرجوا منها فسألوا الرجعة فلم يرجعوا .

فالأكياس العقلاء يجعلونها مطية للآخرة ، جوع قليل ، وعُري قليل وذل قليل ، وصبر قليل ، وقد انقضت عنهم أيام الدنيا ! .

***

وفي الألم والمعاناة خير ، فليس كل الألم مذموماً ! .

إن الدعاء الحار يأتي مع الألم ، والتسبيح الصادق يصاحب الألم .

إن من احترق في بدايته أشرقت نهايته ! .

المؤمنون الأولون الذين عاشوا فجر الرسالة ومولد الملة وبداية البعث ، أعظم إيماناً وأبر قلوباً وأصدق لهجة وأعمق علماً ، لأنهم عاشوا الألم والمعاناة فكانوا بحق الصفوة الصافية .

وعلى العبد في الدنيا أن يوطن نفسه على المحن فيهون عليه ما يلقاه ويجد السلوان عند فقدان ما يهواه :

يمثل ذو اللب في لبه	شدائدَه قبل أن تنزلا
فإن تنزلت بغتةً لم ترعه	لِما كان في نفسه مثّلا
رأى الأمر يُفضى إلى آخرٍ	فصير آخره أولا
وذو الجهل يأمن أيامه	وينسى مصارع من قد خلا
فإن دهمته صروف الزمان	ببعض مصائبه أعولا
ولو قدم الحزم في نفسه	لعلمه الصبر عند البلا

المحلة الكبرى ٢٧ / ٦ / ٢٠٠٩ م

المراجع :

١ . قصص من واقع الحياة .

٢ . شبكة الانترنت .

المؤلفة فى سطور

سمية عبد الحليم عويس

ــ مواليد ١٣يناير١٩٧٢م الكويت .

ــ تخرجت من كلية الآداب جامعة عين شمس قسم اللغة العربية وآدابها سنة ٩٣م

ــ عضو رابطة الأدب الإسلامى .

ــ كاتبة بمركز الإعلام العربى .

أهم مؤلفاتها :

ــ أمهات المؤمنين ــ العشرة المبشرون بالجنة ــ دار العبيكان بالسعودية .

ــ هكذا عرفت الله (رواية) .

ــ صراخ الصمت (مجموعة قصصية) .

ــ قطار الأيام (مجموعة قصصية) .

ــ في الصيف السابع والثلاثين (خواطر) دار الكلمة بالقاهرة .

ــ لقاء النفوس (فلسفة حياة) دار البشير بالقاهرة وطنطا .

ــ في أودية الحرمان (مجموعة قصصية) .

ــ في القفص الذهبي .. صولات وجولات .

ــ حدثنى الإمام الشافعى ــ دار المعارف .

ــ كيف أخرج من العاصفة بسلام ــ مركز الإعلام العربى .

ــ غريب فى المدينة (قصص طويلة) ــ دار بوب بروف .

ــ قلوب ظامئة (ثلاث مجموعات قصصية) ــ دار بوب بروف .

ــ مصطفى محمود ــ مفكر يباشر الحياة ــ دار بوب بروف .

ــ رحلة في ذاكرة الأمة (مواقف من التاريخ الإسلامي) ــ تحت الطبع .

ــ صور حضارية من تراثنا العربي ــ تحت الطبع .

ــ لحظات في حب الله (تصوف) ــ تحت الطبع .

ــ أطواق النجاة (تنمية بشرية) ــ تحت الطبع .

ــ في اللحظات الأخيرة (حسن وسوء الخاتمة) ــ تحت الطبع .

ــ حديث العقول (مقالات) ــ تحت الطبع .

للتواصل :

somyahaleem@yahoo.com

الموقع الإلكترونى :

www.khodwhat.com

***

الفهرس	الصفحة
ــ الإهداء..	٣
(*) المجموعة الأولى (الجنة الموعودة)........................	٥
ــ تباريح الألم	٦
١ ــ أسطورة الحب أنت	٧
٢ ــ الجنة الموعودة	٩
٣ ــ أرجوك يا حبيبتى..	١٥
٤ ــ الخوف يا صديقى	١٧
٥ ــ زوجة فى مهب الريح	١٩
٦ ــ قصة الأمس..	٢١
٧ ــ ثلج تحت الشمس..	٢٣
٨ ــ سيدة الصابرين	٢٥
٩ ــ أنت قدرى..	٢٧
١٠ ــ هذا هو الحب	٢٩
١١ ــ رجل وست..	٣١
١٢ــ أمى قتلتنى	٣٣
١٣ــ ضحايا الحياة	٣٥
١٤ــ حتى أحرق قلوبهم	٣٧
١٥ــ الآباء يصرخون	٣٩
١٦ ــ الابنة ضحية الظلم	٤١
١٧ــ الجلاد الضحية	٤٣
١٨ــ شيطان النفس	٤٧

١٩ـــ هاتف قبل ثلاثة ٥١
٢٠ـــ جزاء وفاق ٥٣
٢١ ـــ كتبت بدمها أحبك.. ٥٥
(*) المجموعة الثانية (نعيش الحب ، ولكن) ٥٩
١ ـــ حرائق الحب.. ٦٣
٢ ـــ وقفة ٧٥
٣ـــ أم البطل ٧٧
٤ ـــ ابن أمير المؤمنين ٧٩
٥ ـــ أنوار الحب ٨٣
٦ ـــ رابعة العدوية ٨٥
ـــ رابعة فى خلوتها.. ٩٣
ـــ رابعة فى ميزان التاريخ ٩٨
ـــ الخاتمة.. ٩٩
٧ ـــ لمن النجاة ١٠١



Pop professional press

الجنة الموعودة

كما الفرق بين ريحة النعناع ورائحة الاشتهاء .. تتمثل الجنة الموعودة ـــ تلك المجموعة القصصية ـــ أمام أعيننا وداخل ضمائرنا نبراسا هاديا إلى الفارق بين الحق والباطل .. بين الجمال والقبح .. بين النور والظلام .. لتدفعنا بهدوء وروية إلى الرحيل نحو فردوس أسمى لا نرتدى فيه أقنعة الزيف ولا تسقط فيه هاماتنا حد الانكسار .

إنه الفردوس الذى تغزله لنا الكاتبة سمية عبد الحليم عويس من خيوط الحياة الملفعة بالغيوم والمفعمة بالخطايا .. وتنسجه من نسيج الواقع المتخم بالضحايا المتعبين .. بلغة أصيلة تنتمى إلى زمن الفن الجميل .. لا لنبكى على اللبن المسكوب وإنما لنترك ميراث الدموع ولنصنع من أنفسنا ولأنفسنا شموخ النخيل وبهاء الصدق .

فى هاتين المجموعتين القصصيتين تتجسد مشاعر آدم وحواء وترتسم خلجاتهما فى لحظات الحياة وهما يقبضان على نـ[illegible] الوحدة حينا ونور الامتزاج حينا آخر .

الناشر





pop professional press